PLOMS Journal of Humanities (PLOMS HUM)

PLOMS Humanities

Article

التنظير البلاغي عنـد ابن خلـدون

الدكتور / إبراهيم عبد الفتاح رمضان

كلية الآداب - جامعة المنوفية - جمهورية مصر العربية

Ebff2014@gmail.com

Received: 03-09-2021; Accepted: 05-10-2021; Published: 12-10-2021

الملخص: تنقسم الدراسة إلى ثلاثة مباحث تسبقها مقدمة وتمهيد وتتلوها خاتمة ومعجم للمصطلحات؛ يتناول التمهيد: -علاقة البلاغة باللسانيات، - وموقع البلاغة علوم اللسان. وتناول المبحث الأول: التأريخ البلاغي عند ابن خلدون؛ أربعة مطالب هي: - ترتيب علوم اللسان. - علاقة البلاغة بالإعجاز القرآني. - الذوق البلاغي أداة لفهم الإعجاز. - مراحل نشأة البلاغة واكتمال نضجها. المبحث الثاني: فلسفة العلم ومسائله: وفيه ثلاثة مطالب: -انقسام البلاغة إلى الثلاثة الأفرع المعلومة. -دراسة ابن خلدون لمسائل العلم: - مسائل علم المعاني، - مسائل علم البيان، - مسائل علم البديع. -الكتب البلاغية ومؤلفوها. المبحث الثالث: النقد البلاغي عند ابن خلدون: وقد شمل أربعة مطالب: - ما وافق فيه ابن خلدون البلاغيين قبله. - نقدات ابن خلدون للبلاغيين. - الترجيح في المسائل المتعددة الآراء: أ) الترجيحات في أبواب علم المعاني. ب) الترجيحات في أبواب علم البيان. ج) الترجيحات في تسمية علوم البلاغة. - تقويم المشارقة والمغاربة: معجم المصطلحات البلاغية عند ابن خلدون: ثم الخاتمة وفيها أهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج.

Abstract: Rhetorical theorization according to Ibn Khaldun

The study is divided into three sections, preceded by a prelude and an introduction, followed by a conclusion and a glossary; The first topic: the rhetorical history of Ibn Khaldun consists of four points: 1- The order of linguistics. 2- The relationship between rhetoric and the Qur'anic miracles. 3- Rhetorical taste as a tool for understanding the miracles. 4- rhetoric from emergence to maturity. The second topic: the philosophy of science and its issues: It has three points: 1- The division of rhetoric into the three known branches. 2- Ibn Khaldun's study of subjects related to the science: - semantics - stylistics, - literary techniques. 3. Rhetorical books and their authors. The third topic: rhetorical criticism according to Ibn Khaldun: has included four points: 1 - what Ibn Khaldun agreed with rhetoricians before him. 2- Ibn Khaldun's criticism of the rhetoricians. 3- His preferences regarding multi-opinion issues: a) Preference in semantics. b) Preferences in stylistics. c) Preferences in literary techniques. 4- Comparison between the scholars of the East and the west: (4) Glossary of rhetorical terms according to Ibn Khaldun: Then the conclusion on the most important findings of the study.

الكلمات المفتاحية: ابن خلدون- البلاغة العربية- البلاغة القديمة- علم البيان- علم البديع-علم المعاني-النقد البلاغي.

١. المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى الأمين.

من الممكن أن ندلل على مكانة إسهامات ابن خلدون في الثقافة العربية عموما، والمعاصرة منها خصوصا من خلال معيار مهم هو كثافة البحوث والدراسات التي كتبت عنه في كتابات الدراسين العرب، ولذلك لا نعجب حين نقرأ ما كتبه الدكتور عبد الحكيم راضي عن ابن خلدون في تقديمه لكتاب: (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا) حيث يقول: (ولا يخلو كتاب هام أو مقال في الشعر والأدب عموما أو اللغة من إشارة أو اقتباس من هذه المقدمة " يقصد مقدمة ابن خلدون")(١).

وقد حاول كثيرون إحصاء ما كتب حول ابن خلدون من دراسات ومن أهم هذه الدراسات ما قام به المهرجان العلمي الذي نظمه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بعنوان (ابن خلدون: قائمة بمؤلفاته وبعض المراجع التي كتبت عنه)، ٢٥ رجب - ٢٩ من رجب سنة ١٣٨١/٢ هـ / ٦ من يناير سنة ١٩٦٢. وقد قامت بطبعه مطبعة دار الكتب، وكذلك ما كتبه محمد العزيز نجاحي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس بعنوان: ابن خلدون في الكتابات المعاصرة: مدخل ببليوغرافي، مكتبة علاء الدين ٢٠٠٦م. كذلك أيضا ما

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ابن خلدون، ١٦، تحقيق: د/ محمد بن تاويت الطبخي، تقديم: د/ عبادة كحيلة، سلسلة الذخائر، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، العدد ١٠٠، ٢٠٠٣م.

كتب عنه في المغرب بعنوان: بيبليوغرافية خاصة بالعلامة ابن خلدون، إعداد وتنسيق علي رحومة سحبون، الرباط، مطبعة الكرامة، ٢٠١١م.

ولسنا الآن بصدد الإحصاء لما كتبه ابن خلدون وإنما أردت التدليل على كثرة ما كتب عنه فقد كان كاتبا موسوعيا، وقد كتب كثيرون في تناوله للملكة اللسانية، لكن أحدا لم يتناول تنظيره البلاغي وأفرده بالدرس على الرغم من تناول دارسين آخرين لمفردات علوم اللسان فمن الدارسين من درس مفهوم الأدب في الخطاب الخلدوني، غسان إسماعيل عبد الخالق، رابطة الكتاب الأردنيين، عمان، ١٩٩١م. وكذلك درسه يحيى محمد أحمد عيد بعنوان: ابن خلدون... أديبا، كلية اللغة العربية في المنصورة، ١٩٩٤م. وقبل هذين كانت دراسة الدكتور / عثمان موافي: ابن خلدون ناقد التاريخ و الأدب، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧٥م. ومن الدارسين من درس: مصطلح المعجمية عند ابن خلدون، د/ خالد فهمي، مجلة علوم إنسانية، العدد ٤٢، صيف ٢٠٠٩م. إضافة إلى دراسة الملكة اللسانية كما فعل الدكتور / محمد عيد في بحثه: الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٩م. وكما فعل الدكتور/ ميشال زكريا في كتابه: الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون: دراسة ألسنية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٦ م.

وتطمح هذه الدراسة للوقوف على تنظير ابن خلدون البلاغي محاورة، ومقارنة بينه وبين سابقيه من البلاغيين؛ لتوضح مدى استيعاب ابن خلدون للفكر البلاغي العربي، ومدى محاورته لهذا الفكر، وما يمكن أن يضيفه لهذا الفكر، وبيان موقفه من الكتب البلاغية ومؤلفيها، واستجلاء موقفه من المشارقة والمغاربة في دراستهم للفكر البلاغي العربي.

وقد ضربت الدراسة عن التعريف بابن خلدون صفحا لأنه لم يعد هناك مجال للتعريف به فهو علم، لا ينكر مثله.

وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تقسم إلى ثلاثة مباحث تسبقها مقدمة وتمهيد وتتلوها خاتمة ومعجم للمصطلحات؛ تحدثتُ في التمهيد عن:

١-علاقة البلاغة باللسانيات، ٢- وموقع البلاغة علوم اللسان. وتناول المبحث الأول: التأريخ البلاغي عند ابن خلدون؛ أربعة مطالب هي:

١- ترتيب علوم اللسان. ٢- علاقة البلاغة بالإعجاز القرآني. ٣- الذوق البلاغي أداة لفهم الإعجاز. ٤- مراحل نشأة البلاغة واكتمال نضجها. المبحث الثاني: فلسفة العلم ومسائله: وفيه ثلاثة مطالب: ١-انقسام البلاغة إلى الثلاثة الأفرع المعلومة.

٢-دراسة ابن خلدون لمسائل العلم: - مسائل علم المعاني، - مسائل علم البيان، - مسائل علم البديع.

٣-الكتب البلاغية ومؤلفوها.

المبحث الثالث: النقد البلاغي عند ابن خلدون: وقد شمل أربعة مطالب:

١- ما وافق فيه ابن خلدون البلاغيين قبله. ٢- نقدات ابن خلدون للبلاغيين.

٣- الترجيح في المسائل المتعددة الآراء: أ) الترجيحات في أبواب علم المعاني. ب) الترجيحات في أبواب علم البيان. ج) الترجيحات في تسمية علوم البلاغة. ٤- تقويم المشارقة والمغاربة:

(٤) معجم المصطلحات البلاغية عند ابن خلدون:

ثم الخاتمة وفيها أهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج.

وهذا جهدي ولم أبخل، فإن أحسنت فالحمد لله، وإن كانت الأخرى فقد حاولت.

ولله الحمد أولا وآخرا...

٢. التمهيد:

أ)علاقة البلاغة باللسانيات:

لما كانت اللغة - في المتعارف – هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وكانت تلك العبارة فعلا لسانيا، فلابد أن تصبح ملكة لسانية تشمل علوما أربعة هي: اللغة والنحو والبيان والأدب، فباعتبار هذه الجهة تصير البلاغة فرعا من اللسانيات (أي علوم اللسان)، لكن حازما القرطاجني يجعلها علم اللسان الكلي الذي يوصل إلى معرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات حيث: (تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب والوضع فيعرف حال ما خفيت به طرق الاعتبارات من ذلك بحال ما وضحت فيه طرق الاعتبار وتوحد طرقهم في جميع ذلك تترامى إلى جهة واحدة من اعتماد ما يلائم، واجتناب ما ينافر)(٢)، كما أن البلاغة تشترك مع الثلاثة الأفرع الأخرى – التي تشكل علوم اللسان – في كونها جميعا ملكة لسانية لكنها تتميز عنها؛ لأن العلوم الأخرى تنحصر في مستوى الصحة اللغوية، ففرع منها يصحح بنية الكلمة، وفرع آخر للإعراب، وثالث للاستعمال وعدمه، ولكن البلاغة تتخطى ذلك كله لتبدأ عملها بعد سلامة الكلام، وصحته اللغوية، وهي مرحلة أوسع أفقا، وأكثر شمولا، تقتضي التعامل مع الكلام في مرحلته الإبداعية، حيث تتفاعل أربعة عناصر هي أساس العملية الإبداعية: أولها: العالم المحيط بالأديب حيث يستقي منه تصوراته. وثانيها: المبدع الذي يقوم بالعمل الأدبي. وثالثها: العمل الأدبي أو الأثر؛ وهو عمل نتج عن انفعال الأديب بالعالم المحيط به. ورابعها: هو المتلقي الذي يلقى إليه العمل الأدبي. ومجموع تفاعل هذه الأربعة العناصر هو دائرة الاهتمام البلاغية في عصورها الزاهية.

(١) منهاج البلغاء، ٢٢٦- ٢٢٧.

أما اللسانيات فإن قصد بها النسبة إلى اللسان فالبلاغة جزء منها؛ أي من علوم اللسان، وإن قصد هذه العلوم الوافدة إلى ثقافتنا من الغرب؛ فإن بينها وبين البلاغة التقاء وافتراقا؛ أما الالتقاء فإنه يكمن في أن موضوعهما واحد هو النص الأدبي، إذ إنهما يفحصان العمل الأدبي المنتج عن طريق مبدع واعٍ بقضية الإبداع. وأما الافتراق بينهما فمن وجوه متعددة ذكرها الدكتور سعد مصلوح فبلغت عنده أحد عشر وجها (٣)، نلخص أهمها فيما يلي:

أن البلاغة العربية بلاغة الشاهد والمثال والجملة المفردة – فيما عدا الفصل والوصل – أما اللسانيات فتعالج النص أو الخطاب أو المدونة.

أن البعد الإحصائي جزء من ماهية اللسانيات؛ لأن الخاصية الأسلوبية مرتبطة بالشيوع والندرة النسبيين، أما البلاغة فمجرد وجود الفن – ولو لمرة واحدة – كفيل بعدّ الظاهرة والحديث عنها.

البلاغة تعالج الإمكانات التعبيرية من جهة قواعدها، أما الفحص اللساني الأسلوبي فموضوعه الكلام والأداء.

البلاغة تدرس الكلام الأدبي أو اللغة في مستواها الإبداعي، أما اللسانيات فتدرس جنس الكلام كله والأدبي جزء منه.

غاية البلاغة عملية تعليمية، أما الأسلوبيات فغايتها وصفية.

البلاغة يغلب عليها تفتيت الظاهرة، أما اللسانيات فتجمع الأشباه والنظائر التي تشكل ظاهرة أسلوبية.

اعتمدت البلاغة على نحو الجملة، أما اللسانيات فاعتمدت على اللسانيات النصية.

ب) موقع البلاغة علوم اللسان:

إن علوم اللغة العربية وحدة متكاملة، لا تكاد تنفصل عن بعضها البعض، فكل فرع منها مكمل، ولكن طبيعة الدراسات الحديثة المبنية على التخصص الدقيق اقتضت إفراد كل علم منها بدراسة مستقلة بحسب طبيعته، وما يبحث فيه. فعلم الصرف يُعْنى بصحة الكلمة المفردة، وسلامة بنائها لغوياً، وميزانها الصرفي.

وعلم النحو يُعْنى ببناء الجملة العربية، على نحو ما أُثر عن العرب في طريقة كلامهم. فهناك علاقة وثيقة وقوية بين النحو والبلاغة؛ هذه العلاقة لا يمكن فصلها بسبب تلازمهما فكل منهما يكمل الآخر، فإذا كان النحو يتناول الأسلوب من ناحية التكوين، وضبط أواخر الكلمات، فإن البلاغة تتناوله من جهة ما يتحقق في الأسلوب من قيم جمالية وفنية تجعله مناسبا لما دل عليه، وهو ما يعرف عند البلاغيين (بمطابقة الكلام لمقتضى الحال)، لذا نجد أن علماء البلاغة وجهوا عنايتهم بدراسة النحو، ودرسه جنبا إلى جنب مع دراستهم للبلاغة، موضحين مكانة النحو في قوة الأسلوب، وأثر البلاغة في فنيته وسلاسته وجماله.

وعلاقة البلاغة بالنحو ليست علاقة تشابه بين حقلين معرفيين، وإنما علاقة النحو بالبلاغة تمثل سلطة – كما ذهب إلى ذلك الدكتور مصطفى ناصف(٤) – يقول: (النحو سلطة... لأنه يحمي اللغة من عنف التطور، ويصور في الوقت نفسه عبقرية العربية. وعبقرية العربية لا تخلو من معنى أخلاقي ونفسي وروحي، والنظم النقدية أو البلاغية لها نظائر من اصطلاحات النحويين واستنباطاتهم، وجملة هذه النظم يمكن التعبير عنها بطريقة ما إذا استعملنا كلمة السلطة) (٥)، بيد أننا نلحظ أن هذه السلطة حقيقية على الرغم من أن البلاغة تبدأ عملها حيث ينتهي عمل النحو لكن هذه السلطة تحكمت في أمور كثيرة ووجهت الدرس البلاغي على أن هذا ليس مجال عملنا غير أننا نؤكد (البلاغة معتمدة على الأصول المعرفية التي انطلق منها النحاة مع اختلافهما في النظرة والتناول) (٦)، ونختم حديثا عن العلاقة بين النحو والبلاغة بما قاله الدكتور تمام حسان إذ يذهب إلى أن (البلاغيين لم يبدأوا التفكير في موضوعهم من نقطة الصفر، وإنما بنوا صرح البلاغة على أساس من جهود من تقدمهم من النحاة واللغويين فلا عجب أن تتم الفروع عن الأصول، وتقف البلاغة غير بعيد من موقف النحو واللغة) (٧).

وعلم البلاغة مكمّل لعلم النحو وزائد عليه؛ فهو يُعْنى بتعلّم أصول لسان العرب، ومعرفة طرائقهم في التعبير، والوقوف على أساليبهم البيانية المؤثرة؛ وذلك كالعناية بمسائل الفصاحة وما يتعلق بها، ومعرفة كيفية بناء الجمل من خلال مراعاة المقامات، وفقه أسرار التقديم والتأخير والإظهار والإضمار والتعريف والتنكير، والتعليل لتلك الأساليب، وغير ذلك مما لا تدرس في علم النحو مقاماته وتعليلاته. ومن أعظم الأمور التي درسها هذا العلم هو محاولة الكشف عن وجوه الإعجاز البيانية في القرآن الكريم، بل إن هذا هو سبب نشأة هذا العلم والتدوين فيه.

---

(٢) مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، ٢ / ٨٥٧: ٨٦٠، بحث منشور ضمن أعمال ندوة: قراءة جديدة لتراثنا النقدي، نادي جدة الأدبي ١٩٨٨م.

(٣) النقد العربي نحو نظرية ثانية، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٠م، وقد عنون لموضوع كامل بقوله: النحو والسلطة، وقد وصف الدكتور عبد العزيز حمودة هذه السلطة بأنها (فكرة إنشائية فيها من الهزل أكثر مما فيها من الجد) المرايا المقعرة ٢٤٠، ط عالم المعرفة، ٢٠٠١م ولعل الذي دفع الدكتور عبد العزيز حمودة إلى وصف الفكرة بذلك ما صرح به الدكتور ناصف نفسه في بداية الكتاب بأنه كتاب: (مشحون بطائفة من الاقتراحات الثائرة) انظر المقدمة ص٧. وقد نقل الدكتور عيد بلبع كلام الرجلين، وقسا على الدكتور عبد العزيز حمودة وادعى أن: (عجزه عن ملاحقة الدكتور ناصف هو الذي دعاه لانتقاد الفكرة) انظر سلطة الجذور: الأثر السلبي للنحو العربي على الدرس البلاغي، مجلة فصول العدد ٦٠، صيف وخريف ٢٠٠٢م.

(٤) النقد العربي نحو نظرية ثانية، ص ٢٣.

(٥) الأصول البلاغية في كتاب سيبويه ١٧، ١٨.

(٦) الأصول ٣٥٣.

وقد ذكر يحيى بن حمزة العلوي أن البديع خاص بأنواع التراكيب، ولا يقع في المفردات، وهو خلاصة علمي المعاني والبيان، وعلم البديع تابع للفصاحة والبلاغة فإذاً هو صفوٌ وخلاصُ الخلاص؛ وبيان ذلك أن العلوم الأدبية بالإضافة إلى حاجته إليها على خمس مراتب كل واحدة منها أخص من الأخرى، وهو الغاية التي تنتهي إليها كلها:

وأولى هذه المراتب: علم اللغة: وهو علم الألفاظ المجردة الموضوعة للدلالة على معانيها المفردة كالإنسان، والفرس، والجدار، وغير ذلك. فإنه لا يستفاد منه إلا ما ذكرنا من المعاني المفردة من غير الزيادة عليه، ويلي هذه المرتبة علم التصريف وهو علم جليل القدر من علوم الأدب متعلَّقة العلم بتصحيح الألفاظ، وهو أخص من علم اللغة؛ لأن متعلقه ليس إلا سلامة الألفاظ، ومعرفة أصليِّها من زائدها، وصحيحها من عليلها، وإجراء إعلالها على القوانين المألوفة.

والمرتبة الثالثة: علم الإعراب (النحو): وهو أخص مما سبقه لأن ما سبقه من علم اللغة والتصريف يختص بالأمور المفردة؛ أما النحو فهو مختص بالتراكيب لأن الإعراب لا يستحق إلا بعد العقد والتركيب، فمن أجل ذلك كان أخص حكمًا فيها لما ذكرناه، ومهمته إفادة الكلام.

ورابع هذه المراتب: علم المعاني: وهو أخص من علم الإعراب من جهة أن علم الإعراب تحصل فائدته من مطلعه التركيب وعلم المعاني تأتي فائدته من وراء التركيب، وهو ما يتعلق بالأمور الخبرية من تعريفها وتنكيرها، وتقديمها وتأخيرها، وفصلها ووصلها، وبالأمور الإنشائية الطلبية؛ كالأمر والنهي والتمني والترجي والنداء، فالنظر في علم المعاني أخص من النظر في علم الإعراب.

وخامس المراتب: علم البيان: وهو أخص من علم المعاني؛ لأن حاصل دلالته على ما يدل عليه ليس من جهة الإنشاء، ولا من جهة الخبر، ولكن من دلالة أخص من ذلك؛ وهي دلالة اللفظ على معناه، إما تحقيقه بتشبيه أو غير تشبيه أو من جهة مجازه إما بطريق الاستعارة أو بطريق الكناية. وإذا تمهدت هذه القاعدة فاعلم أن علم البديع حاصله معرفة مقصود الكلام وفصاحته، وهذا لا يحصل بتمامه وكماله إلا بإحراز ما سلف من العلوم الأدبية فهو خلاصتها وصفوها ونقاوتها وهي وُصْلَةٌ إليه(٨).

وقد عبر ابن خلدون عن علاقة البلاغة بعلوم العربية فقال عن علم البيان (ويقصد به علوم البلاغة كلها): (هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة، وهو من العلوم اللسانية؛ لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده، ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني) (٩).

٣. المبحث الأول: التأريخ البلاغي عند ابن خلدون

ذكر ابن خلدون في تنظيره لمسائل البلاغة مسائل تتصل بالتأريخ لعلومها، بل كان بعضها سببا في نشأتها، ومن هذه العلوم التي ذكرها: العلاقة بين البلاغة الإعجاز القرآني، وأثر الذوق في فهم الإعجاز، كما لم يفته الحديث عن مراحل نشأة البلاغة، ثم ثمرة إتقان علومها، وهو في كل ذلك يصدر عن علم بتاريخ البلاغة، ومهارة بقضايا هذا العلم، وسوف يتضح لنا ذلك من خلال معايشته في هذه المسائل السالفة الذكر:

(١ / ١) ترتيب علوم اللسان:

ذكر ابن خلدون ترتيبا لعلوم اللسان التي هي أربعة علوم □ على حد قوله – لكنه رتبها بطريقة خاصة فقال عن اللسان العربي: (أركانه أربعة: وهي اللغة والنحو والبيان والأدب. ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة؛ إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرحُ مشكلاتها من لغاتهم؛ فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان، لمن أراد علم الشريعة، وتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام، حسبما يتبين في الكلام عليها فنا فنا، والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو؛ إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة؛ فيعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة، وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير، بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه، فإنه تغير بالجملة، ولم يبق له أثر، فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة؛ إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة، وليست كذلك)(١٠). وهذا النص من المقدمة يتناول عدة قضايا مهمة لا بد من التوقف أمامها:

١- قصر علوم اللسان على أربعة علوم وهي خمسة لم يذكر منها علم الصرف الذي يصحح المفردات من حيث صياغتها على ما عهد من صياغة العرب للغتها.

٢- ربط بين علوم والشريعة وعلل لذلك بأن الكتاب والسنة كليهما بلغة العرب، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة باللسان لمن أراد علم الشريعة.

٣- أن تعمق الناس في علم الشريعة بحسب تفاوت مراتبهم في علوم اللسان علما علما.

٤- قدم ابن خلدون ضرورة العلم بالنحو على علم اللغة، مع أن الترتيب العقلي يخالف ذلك حيث إن المنطق يقضي أن نبدأ من المفردة إلى الجملة ثم الدلالة بعد ذلك لكنه خالف وجعل النحو مقدما على علم اللغة أو لنقل علم المفردات ليشمل اللغة والصرف بيد أن ابن

(٧) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلويّ، ٣ / ١٩٤.

(٨) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١.

(٩) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٤٥.

خلدون كان له تعليل لما فعل فجعل السبب في تقديم النحو: (أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير)، وهو يشير بذلك إلى أن المفردة يسهل التعامل معها حيث إنها لا تتغير صورتها مهما وضعت في الجمل المختلفة لكن الإعراب يتغير حيث إن الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه يتغير بالجملة، ولم يبق له أثر، فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة.

٥- جعل الإخلال باللغة أسهل من الإخلال بالنحو حيث إن الجهل بالنحو فيه إخلال بالتفاهم جملة؛ فإذا لم يعرف الفاعل من المفعول حدث اللبس صار المتحدث كأنه يتكلم بلغة غير لغة السامع.

٦- أنه جعل علم البيان – ويقصد به علوم البلاغة – ثالثا بعد علم العربية – ويقصد به علم النحو – وكذلك بعد علم اللغة وأخر عنه علم الأدب فمكان علم البيان الثالث بين علوم اللسان في فكر ابن خلدون.

٧- أنه وضح العلاقة بين علم البيان وعلم النحو وسبب اندراجهما تحت علوم اللسان فقال: (وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده، ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني؛ وذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي: إما تصور مفردات تسند ويسند إليها، ويفضي بعضها إلى بعض، والدالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف. وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة، ويدل عليها بتغير الحركات من الإعراب وأبنية الكلمات، وهذه كلها هي صناعة النحو. يبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين، أو الفاعلين، وما يقتضيه حال الفعل، وهو محتاج إلى الدلالة عليه؛ لأنه من تمام الإفادة، وإذا حصلتْ للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه، وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب؛ فإن كلامهم واسع، ولك مقام عندهم يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة)(١١).

٨- وهذا الذي ذكره ابن خلدون سار عليه اللاحقون فقد قال الهاشمي: (لما وضع «علم الصرف» للنظر في أبنية الألفاظ، ووضع علم النحو للنظر في إعراب ما تركب منها، وضع «البيان» للنظر في أمر هذا التركيب، وهو ثلاثة علوم: (العلم الأول) ما يحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى الذي يريده المتكلم إيصاله إلى ذهن السامع، ويسمى «علم المعاني». (العلم الثاني) ما يحترز به عن التعقيد المعنوي - أي عن أن يكون الكلام غير واضح الدلالة على المعنى المراد، ويسمى «علم البيان» (العلم الثالث) ما يراد به تحسين الكلام ويسمى (علم البديع) فعلم البديع تابع لهما إذ بهما يعرف التحسين الذاتي، وبه يعرف التحسين العرضي) (١٢).

(١ / ٢) علاقة البلاغة بالإعجاز القرآني:

٩- على الرغم من أن مصطلح إعجاز القرآن وضع في أواخر القرن الثالث الهجري – على ما ذهب إليه محمود شاكر – إلا أنها أحدثت (تاريخا مستفيضا رائعا شارك فيه أعظم علماء الأمة في اللغة والبيان والتفسير وعلوم القرآن وعلم الكلام، وسيظل هذا اللفظ باقيا يحدث تاريخا لا ينقطع) (١٣)، كذلك يشير الشيخ شاكر إلى أن الإعجاز كان ثمرة التحدي حيث طولب المشركون بالإتيان بمثل القرآن أو بعشر سور ثم بسورة فلم يأتوا فبان عجزهم، فاستخرج المتكلمون لفظة الإعجاز للدلالة على المعنى المقارن للتحدي، وصار نتيجة له؛ وهو عجزهم عن فعل ما تحداهم به (١٤)، وإذا كان علماؤنا قد أجمعوا – في رأي صلاح الخالدي – (على القول بالإعجاز البياني وأن القرآن معجز ببيانه وفصاحته وبلاغته وأسلوبه، وأجمعوا – أيضا – على اعتبار هذا الوجه هو أبرز وأظهر وأشهر وجوه الإعجاز، وأنه بهذا يقدم شهادة للمسألة الأساسية وهي إثبات أن القرآن كلام الله) (١٥)، أقول: إذا كان علماؤنا قد أجمعوا على أن إعجاز القرآن إعجاز بياني فإنه يلزم كل من تعرض لبيان وجه الإعجاز أن يتكلم في تفصيل وجه هذا البيان، وقد كان هذا هو سبب نشأة علوم البلاغة. وقد أقر كثير من علمائنا بأن البحث في الإعجاز ووجوهه كان هو السبب الأساس لنشأة البلاغة العربية، يقول الحسين بن علي المغربي في أدب الخواص: (ولا أرى أن الإعجاز إنما هو بالصرفة لا غير، كما يعتقده قليل من الناس بل أرى أن الإعجاز إنما هو بنوعية ذلك النظم، وبإعجازه من التمكين والحول)(١٦)، ويقول الباقلاني: (لأن الإعجاز واقع في نظم الحروف التي هي دلالات وعبارات عن كلامه والى مثل هذا النظم وقع التحدي فبينا وجه ذلك وكيفية ما نتصور القول فيه) (١٧)، ويشرح الدكتور شكري عياد ما يقصده عبد القاهر بقضية النظم فيقول: (فالعبرة في بلاغة الكلام بحسن تأليفه، والعبرة في حسن التأليف بالمعنى. وإذ كان النحو هو الذي يعرفنا أنواع التأليف المختلفة للدلالة على المعاني المختلفة، فمدار البلاغة إذن هو وضع التراكيب النحوية في مواضعها، واستعمالها فيما ينبغي لها. ولا يعني عبد القاهر بهذا مجرد الصحة، بل تخير الأسلوب المناسب من بين أساليب متعددة كلها صحيح نحويًّا، وكلها تؤدي معنًى واحدًا، إلّا أن لكل واحد منها خصوصية في ذلك المعنى. ليست للأساليب الأخرى) (١٨)، ويقول العلوي: (العلم المعبّر عنه بعلم البيان

---

(١٠) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٠.

(١١) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ)، ١ / ١٦، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.

(١٢) مداخل إعجاز القرآن، ٨.

(١٣) السابق، ٣٠- ٣١.

(١٤) البيان في إعجاز القرآن، صلاح الخالدي، ٧، دار عمار، الأردن، ط١٤١٣،٣هـ- ١٩٩٢م.

(١٥) السابق

(١٦) إعجاز القرآن، الباقلاني، ٢٦١.

(١٧) النقد والبلاغة، د/ شكري محمد عياد، مطبوع ضمن «موسوعة الحضارة العربية الإسلامية»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ١٩٨٧م.

هو علم الفصاحة. وعلم المعاني هو المعبّر عنه بعلم البلاغة. وهو أجلّ العلوم الأدبية قدرا ومكانا، وأعلاها منزلة، وأكبرها شأنا؛ لأنه علم يستولي على استخراج أسرار البلاغة من معادنها. وهذه توجد محاسن النّكت المودعة في أصدافها ومكامنها. وهو الغاية التي ينتهي إليها فكر النّظّار، والضّالة التي يطلبها غاصة البحار. وعليه التعويل في الاطّلاع على حقائق الإعجاز في القرآن، وإليه الإسناد عند المسابقة في الخصل والرهان. ومنه تستثار المعاني الدقيقة على مرّ الدّهور، وتخرّم الأزمان) (١٩)، وقال حامد عوني: (إن لهذه العلوم " يقصد علوم البلاغة" الفضل الأول في بيان أسرار اللغة، والكشف عن كنوزها، والبحث عن نفائسها. وفي معرفة ما لها من ميزة السبق على سائر اللغات حتى نزل بها القرآن الكريم، فوسعته معنى وأسلوبًا -على ما فيه من روعة وجلال- فكان ذلك شهادة لها بإحرازها قصب السبق، واستوائها على عرش السيادة. كذلك لها الفضل الأول في الكشف عن سر إعجاز القرآن بما حواه من بارع اللفظ، ورائع الأسلوب، وما تضمنه من بيان ساحر هو فوق متناول الإدراك، حتى وقف بنو العروبة وحاملو لوائها أمامه واجمين، وخر له عباقرة البيان ساجدين) (٢٠)، وجعل الدكتور عبد العزيز عرفة هدفه من رسالته للدكتوراه بيان مدى إسهام قضية الإعجاز القرآني في نشأة البلاغة العربية وأطوارها في العصور المختلفة(٢١)، كما ذكر الأستاذ محمود شاكر – أيضا – أن بحث قضية إعجاز القرآن استدعى نشأة البلاغة من خلال بحث العلماء فيه في القرنين الثالث والرابع الهجريين(٢٢)، وقد ذكر الدكتور عبد العزيز عرفة أثر الإعجاز في البلاغة فحصره في ثلاثة آثار هي:

١٠- ظهرت أحكام نقدية عامة على لسان المؤمنين والمشركين عند سماع القرآن هذه الأحكام هي التي استحالت على أيدي البلاغيين إلى قواعد بلاغية قصد منها تكوين الذوق الأدبي الذي يستطيع أن يدرك وجه إعجاز القرآن البلاغي، ويخلق الكلام الجيد، ويفاضل بين كلام وكلام.

١١- لعل الحرص على معرفة أسباب نزول القرآن الكريم كان وراء تعريف البلاغيين للبلاغة بقولهم: البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

١٢- أصبح البيان بفضل قضية الإعجاز طريقا للإيمان ومن ثم أصبح تعلمه من أمور الدين) (٢٣).

١٣- وعلى الرغم من أن قضية إعجاز القرآن كانت سبب نشأة البلاغة فإن البلاغة صارت علما له قواعد وحدود ولم يتحقق ذلك للإعجاز – على مر العصور – الأمر الذي دعا الأستاذ محمود شاكر إلى تأليف كتابه: مداخل إعجاز القرآن حيث كان هدفه من تأليفه: تأسيس علم خاص هو " علم إعجاز القرآن " يضارع علم البلاغة الذي استدعى نشأته بحث أهل القرنين الثالث والرابع في إعجاز القرآن(٢٤).

١٤- وقد لخص ابن خلدون ما سبق في عبارات قصيرة فجعل ثمرة دراسة علم البلاغة هي فهم إعجاز القرآن يقول: (واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن؛ لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال - منطوقة ومفهومة - هي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها، وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه، وإنما يدرك بعض الشيء منه كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي، وحصول ملكته؛ فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه؛ فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبالغة أعلى مقاما في ذلك؛ لأنهم فرسان الكلام وجها بذاته، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه)(٢٥)، وعبارة ابن خلدون تناقش عدة أمور:

١٥- أن البلاغة أداة لفهم الإعجاز، وهذا يوحي بأن ابن خلدون يوافق مبدئيا على أن الإعجاز هو إعجاز بياني، وأداة فهمه هي البلاغة، ثم إنه علل ذلك بقوله: (لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال - منطوقة ومفهومة -)، وذكر أن هذه هي أعلى مراتب الكمال.

١٦- لم ينس دور الألفاظ المنتقاة التي أجيد رصفها وتركيبها.

١٧- بيّن دور الذوق في إدراك الإعجاز، وأن مراتب إدراك الإعجاز متفاوتة بحسب قوة الذوق، ومخالطة أهل اللسان، ولنا عودة إلى هذه القضية.

١٨- أن أحوج الناس إلى دراسة علم البلاغة هم المفسرون، وإنما عدّ الزمخشري إماما في التفسير، وتفوق على غيره بالاستفادة من القواعد البلاغية، وقضية النظم التي وضعها عبد القاهر، وطبقها الزمخشري في تفسيره الكشاف.

(١ / ٣) الذوق البلاغي أداة لفهم الإعجاز:

لقد أقر علماؤنا – قديما وحديثا – بصعوبة – ولا أقول بتعذر على حد ما ذكر أبو سليمان الخطابي – معرفة وجه إعجاز القرآن الكريم، ووجدناهم يحيلون إلى الذوق لاستخراج وجه الإعجاز يقول (أبو حيان التوحيدي: سئل بندار الفارسي عن موضع الإعجاز من القرآن. فقال: هذه مسألة فيها حيف على المعنى؛ وذلك أنه شبيه بقولك: ما موضع الإنسان من الإنسان؟ فليس للإنسان موضع من الإنسان، بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته، ودللت على ذاته، كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شيء فيه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه، ومعجزة لمحاوله، وهدى لقائله، وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه فلذلك حارت العقول، وتاهت البصائر

(١٨) الطراز، العلوي، ١ / ١٥.

(١٩) المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، ١ / ٧.

(٢٠) قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، د/ عبد العزيز عرفة، ٧.

(٢١) مداخل إعجاز القرآن، محمود شاكر، ١١.

(٢٢) قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، د/ عبد العزيز عرفة، ٩.

(٢٣) مداخل إعجاز القرآن، محمود شاكر، ١١.

(٢٤) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٢.

عنده)(٢٦)، وقال الخطابي: ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة لكن صعب عليهم تفصيلها، وصغوا فيه إلى حكم الذوق(٢٧)، واعتبار الذوق أداة لفهم الإعجاز تحدث عنها أيضا كثيرون من علماء البلاغة فعبد القاهر يقول: (اعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعًا من السامع، ولا يجد لديه قبولًا، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، ومن تحدثه نفسه بأن لما تومئ إليه من الحسن أصلًا. فيختلف الحال عليه عند تأمل الكلام، فيجد الأريحية تارة، ويعرى منها أخرى، وحتى إذا عجبته تعجب، وإذا نبهته لموضع المزية انتبه، فأما من كانت الحالان والوجهان عنده أبدا على سواء، وكان لا يتفقد من أمر النظم إلا الصحة المطلقة، وإلا إعرابًا ظاهرًا، فليكن عندك بمنزلة من عدم الطبع الذي يدرك به وزن الشعر، ويميز به مزاحفه من سالمه، وما خرجَ مِن البحرِ مما لم يَخْرُجُ منهُ، في أنك لا تتصدى لتعريفه، لعلمك أنه قد عدم الأداة التي بها يعرف... واعلم أن هؤلاء وإن كانوا هم الآفة العظمى في هذا الباب، فإن من الآفة أيضًا من زعم أنه لا سبيل إلى معرفة العِلَّةِ في قليلِ ما تعرف المزية فيه وكثيرِه، ولا يعلم إلا أن له موقعًا من النفس، وحظًّا من القبول، فهذا بتوانيه في حكم القائل الأول... واعلم أنه ليس إذا لم يمكن معرفة الكل وجب ترك النظر في الكل، ولأن تعرف العلة في بعض الصور فتجعله شاهدًا في غيره أحرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك وتعودها الكسل والهوينا)(٢٨). ويقول السكاكي: (واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه؛ كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين)(٢٩)، كما ذكر في موضع آخر من مفتاحه قوله: (فإن ملاك الأمر في علم المعاني هو الذوق السليم، والطبع المستقيم، فمن لم يرزقهما فعليه بعلوم أخر، وإلا لم يحظ بطائل مما تقدم وما تأخر:

إذا لم تكن للمرء عين صحيحة... فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر)(٣٠)

ويقول ابن الأثير: (واعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم)(٣١).

ويبدو ابن خلدون موافقا للسابقين من العلماء في أن الذوق أداة فهم الإعجاز، وأن الناس مختلفون في حظوظهم من هذا الذوق، وأن فهم الإعجاز يكون بمقدار حظ الناظر فيه من الذوق والهبة التي وهبه الله تعالى إياها، وأن للملكة اللسانية دورا في الوقوف على أوجه الإعجاز وهو ما يعبر عنه □ في تراث علمائنا - بالدربة، وأن العرب الذين نزل عليهم القرآن كانوا أعلى مقاما في فهم مقاصده والوقوف على أوجه إعجازه لأنهم كانوا أعلم بالبلاغة منا حيث كانت البلاغة فيهم فطرة وسليقة وليست مكتسبة بالتعلم. وهو في ذلك كله يوافق السابقين من العلماء في هذا الباب باب البلاغة والفصاحة يقول ابن خلدون: (واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن؛ لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال - منطوقة ومفهومة - هي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها، وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه، وإنما يدرك بعض الشيء منه كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي، وحصول ملكته؛ فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه؛ فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبالغة أعلى مقاما في ذلك؛ لأنهم فرسان الكلام وجها بذاته، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه) (٣٢)، ولننظر إلى قول السكاكي قبله وهو يؤكد أن الطريق لاكتساب الذوق - بعد سلامة الطبع الذي هو هبة الله للإنسان - لا يكون إلا بتعلم البلاغة والفصاحة وطول خدمتهما، يقول في ختام حديثه عن الإسناد الخبري: (وأن هذا الفن فن لا تلين عريكته، ولا تنقاد قرونته، بمجرد استقراء صور منه، وتتبع مظان أخوات لها، وإتعاب النفس بتكرارها، واستيداع الخاطر حفظها وتحصيلها، بل لا بد من ممارسات لها كثيرة، ومراجعات فيها طويلة، مع فضل إلهي من سلامة فطرة، واستقامة طبيعة، وشدة ذكاء، وصفاء قريحة، وعقل وافر. ومن أتقن الكلام في اعتبارات الاعتبارات وقف على اعتبارات النفي)(٣٣). ولعلنا نلحظ الاتفاق في المذهبين فابن خلدون لا يخرج عما قرره علماء البلاغة وبخاصة من وضعوا حدودها وأصولها (إن كلام السكاكي عن الدربة والمران والخبرة ليس كلاما اعتباطيا، بل هو جزء من بنيان متكامل أساسه القاعدة البلاغية والذوق الفني، لكون الخبرة تحصل بالمران والدربة، وبهما تتحقق المعرفة التي تزكو بصقالة الذوق) (٣٤).

(١ / ٤) مراحل نشأة البلاغة واكتمال نضجها:

تحدث ابن خلدون عن نشأة البلاغة وتطور هذه النشأة فذكر فريقا من الذين أسهموا إسهامات واضحة في تطور هذا الحقل العلمي – كما لم يفته الإشارة إلى بعض المؤلفات البلاغية التي كان لها أثر كبير في حياة علم البلاغة - وفي أثناء حديثه عن نشأتها ذكر سبب تسمية علوم البلاغة بعلم البيان.

---

(٢٥) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٢ / ٣١٩.

(٢٦) نفسه.

(٢٧) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ٢٩٢.

(٢٨) مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، ٤١٦.

(٢٩) مفتاح العلوم، ٣٠١.

(٣٠) المثل السائر، ابن الأثير، ١ / ٣٥.

(٣١) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٢.

(٣٢) مفتاح العلوم، ١٧٥.

(٣٣) القاعدة والذوق في بلاغة السكاكي، د/ يوسف زرقة، ١٩٦ مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد السابع، العدد الأول، يناير ١٩٩٩م.

(١/ ٤ / أ) أول من كتبوا في البلاغة:

ذكر ابن خلدون أن جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم قد تكلموا في علم البلاغة، وقد أملوا فيه إملاءات، وقد كان أول علم من علوم البلاغة قد تكلموا فيه علم البيان. وهذه الإشارات التي ذكرها ابن خلدون تلفت نظرنا إلى أمور مهمة: منها: أنه عدد نفرا من الأدباء الذين أملوا في البلاغة أمالي، وأن هذه الأمالي لم تكن وافية مما فتح الباب أمام من جاء بعدهم ليكمل نقص هذه الأمالي، وأن هناك آخرين كتبوا أو أملوا في البلاغة فليس الأمر قاصرا على الثلاثة المذكورين، وأن أول العلوم التي ألف فيها من البلاغة هو علم البيان؛ ولذلك نسبت كل علوم البلاغة إليه، وأن مسائل هذا العلم تدرجت في النمو حتى اكتملت متبعة في ذلك سنة الله في خلقه حيث يبدأ الأمر صغيرا ثم يكبر شيئا فشيئا، وأن الذي (مخض زبدته، وهذب مسائله، ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفا من الترتيب، هو السكاكي، وأنه ألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان؛ فجعل هذا الفن من بعض أجزائه، وأخذه المتأخرون من كتابه، ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد) (٣٥).

(١ / ٤ / ب) أمهات كتب البلاغة:

وقد عدد ابن خلدون كتبا بلاغية ابتدأها بمفتاح السكاكي فقال عن صاحبه: (ألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان؛ فجعل هذا الفن من بعض أجزائه، وأخذه المتأخرون من كتابه، ولخصوا منه أمهاتٍ هي المتداولة لهذا العهد، كما فعله السكاكي في كتاب التبيان، وابن مالك في كتاب المصباح، وجلال الدين القزويني في كتاب الإيضاح، والتلخيص، وهو أصغر حجما من الإيضاح، والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره)(٣٦). فقد عدد كتابين للسكاكي: مفتاح العلوم والتبيان، والمصباح في المعاني والبيان والبديع لابن مالك، وذكر كتابي القزويني: التلخيص والإيضاح وهو شرح للتلخيص، لكن ابن خلدون أشار إلى أن التلخيص أصغر حجما، ويبدو أنه لم يطلع على كلا الكتابين لأنه لم يشر إلى أن الإيضاح شرح للتلخيص، ثم أشار إلى أن التلخيص قد اعتنى به أهل المشرق عناية كبيرة، وجعلوه منهجا تعليميا أكثر من غيره.

(١ / ٤ / ج) سبب تسمية علوم البلاغة الثلاثة: بعلم البيان.

يقول ابن خلدون: (وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان؛ وهو اسم الصنف الثاني؛ لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه، ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى)(٣٧)، وكلام ابن خلدون هنا فيه ثلاثة أمور مهمة هي: أن تسمية البلاغة بفروعها الثلاثة: علم البيان لم يكن معروفا عند الأقدمين، وأن الذين أطلقوا عليها هذه التسمية هم المحدثون، وأن سبب إطلاق اسم البيان على فروع البلاغة كلها أن الأقدمين أول ما ألفوا في البلاغة ألفوا في البيان قبل غيره من المعاني والبديع.

المبحث الثاني: فلسفة العلم ومسائله:

وهذا المبحث يتناول عدة مطالب ونركز فيه على ثلاثة أمور هي: أولها: انقسام البلاغة إلى الثلاثة الأفرع المعلومة. والثاني: ما تميز به المشارقة، وما تميز به المغاربة. والثالث: دراسته لمسائل العلم. وهذا المبحث أكبر المباحث حيث إن ابن خلدون تناول مسائل علوم البلاغة تفصيلا وكانت له فيها نظرات سنشير إليها في أماكنها من الدراسة بإذن الله:

(٢ / ١) انقسام البلاغة إلى الثلاثة الأفرع المعلومة:

تحدث ابن خلدون عن أقسام البلاغة الثلاثة، وبين وجه انقسامها إلى الثلاثة الأفرع، فإن البحث البلاغي يكون في الدلالات والأحوال والمقامات؛ ففي علم المعاني – الذي يسميه ابن خلدون علم البلاغة – يبحث في الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال، وعلم البيان يبحث في دلالة اللازم على ملزومه، وعلم البديع يبحث في تزيين الكلام وتحسينه يقول ابن خلدون: (وإنما هي هيئات وأحوال الواقعات، جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ، كل بحسب ما يقتضي مقامه، فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان { يقصد به علوم البلاغة الثلاثة } على البحث عن هذه الدلالة التي للهيئات والأحوال والمقامات، وجعل على ثلاثة أصناف: الصنف الأول: يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال؛ ويسمى علم البلاغة. والصنف الثاني: يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه؛ وهي الاستعارة والكناية - كما قلناه -؛ ويسمى علم البيان. وألحقوا بهما صنفا آخر: وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه؛ بنوع من التنميق إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه؛ لاشتراك اللفظ بينهما، وأمثال ذلك، وسمي عندهم علم البديع. وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان؛ وهو اسم الصنف الثاني؛ لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه، ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى)(٣٨). وكلام ابن خلدون يدور حول عدة أمور:

أن البلاغة هي التعبير بهيئات الألفاظ وأحوالها عن هيئات وأحوال الواقعات على حسب ما تقتضيه المقامات.

أنه سمى علوم البلاغة الثلاثة باسم النوع الثاني منها وهو علم البيان، وعلل لذلك بأن علم البيان هو أول شيء تكلم فيه واضعو البلاغة، وهذا تعليل مقبول.

---

(٣٤) مقدمة ابن خلدون، ١/ ٥٥٢.

(٣٥) نفسه.

(٣٦) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١- ٥٥٢.

(٣٧) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١- ٥٥٢.

أنه نسب تسمية علوم البلاغة الثلاثة باسم العلم الثاني منها وهو علم البيان إلى المحدثين، ولعله يقصد بالمحدثين: أصحاب مدرسة تلخيص المفتاح.

ولعل سر حصر علوم البلاغة في ثلاثة علوم ما أشار إليه عبد المتعال الصعيدي في بغية الإيضاح حيث يقول: (حصر علوم البلاغة: وقد عُلم بما ذكرنا أمران: أحدهما: أن كل بليغ -كلاما كان أو متكلما- فصيح، وليس كل فصيح بليغا. الثاني: أن البلاغة في الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وإلى تمييز الكلام الفصيح من غيره. والثاني - أعني التمييز- منه ما يُتبين في علم متن اللغة أو التصريف أو النحو، أو يدرك بالحسن، وهو ما عدا التعقيد المعنوي. وما يحترز به عن الأول -أعني الخطأ في تأدية المعنى المراد- هو علم المعاني. وما يحترز به عن الثاني - أعني التعقيد المعنوي- هو علم البيان. وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته هو علم البديع)(٣٩).ثم ذكر في الهامش قوله: (بهذا تنحصر علوم البلاغة في العلوم الثلاثة، وإنما لم تجعل علوم اللغة والتصريف والنحو من علوم البلاغة مع توقف الفصاحة عليها أيضا؛ لأنها تقصد لأغراض غير الفصاحة، ومعرفة بعض نواحي الفصاحة منها تأتي بطريق العَرَض) (٤٠).

(٢ / ٢) دراسة ابن خلدون لمسائل العلم:

(٢ / ٢ / أ) مسائل علم المعاني:

علم المعاني هو علم معاني النحو وما يفيده التركيب ولذلك مهد له ابن خلدون بالحديث عن علم النحو والفرق بين العلمين فيقول: (الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي: إما تصور مفردات تسند، ويسند إليها، ويفضي بعضها إلى بعض، والدالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف. وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة، ويدل عليها بتغير الحركات من الإعراب وأبنية الكلمات، وهذه كلها هي صناعة النحو. يبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل، وهو محتاج إلى الدلالة عليه؛ لأنه من تمام الإفادة، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه، وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب؛ فإن كلامهم واسع، ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة، ألا ترى أن قولهم: زيد جاءني مغاير لقولهم: جاءني زيد من قِبَل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم. فمن قال: جاءني زيد أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند إليه، ومن قال: زيد جاءني أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند، وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من: موصول، أو مبهم، أو معرفة. وكذا تأكيد الإسناد على الجملة كقولهم: زيد قائم، وإن زيدا قائم وإن زيدا لقائم متغايرة كلها في الدلالة، وإن استوت من طريق الإعراب؛ فإن الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الخالي الذهن، والثاني المؤكد بإن يفيد المتردد، والثالث يفيد المنكر، فهي مختلفة. وكذلك تقول: جاءني الرجل، ثم تقول مكانه بعينه: جاءني رجل إذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه، وأنه رجل لا يعادله أحد من الرجال. ثم الجملة الإسنادية تكون خبرية؛ وهي التي لها خارج تطابقه أو لا. وإنشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه. ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين؛ إذا كان للثانية محل من الإعراب، فينزل بذلك منزلة التابع المفرد نعتا وتوكيدا وبدلا بلا عطف، أو يتعين العطف إذا لم يكن للثانية محل من الإعراب. ثم يقتضي المحل الإطناب والإيجاز فيورد الكلام عليهما)(٤١). ويحسن بنا أن نفصل قليلا في بعض القضايا التي أثارها ابن خلدون في هذا النقل الذي نقلناه:

١- علم النحو وعلم المعاني يكمل بعضهما البعض؛ ففي الوقت الذي يهتم فيه النحو بتصور مفردات تسند، ويسند إليها، وتمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة، ويدل عليها بتغير الحركات من الإعراب وأبنية الكلمات. نجد علم المعاني يهتم بالأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل، وهو محتاج إلى الدلالة عليه.

٢- لكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة. يقول السكاكي: (لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة؛ فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار. وجميع ذلك معلوم لكل لبيب. وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر. ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال) (٤٢).

٣- موافقة ابن خلدون لسيبويه وعبد القاهر في قضية تقديم الأهم في الكلام، وأن الكلام مرتب في النفس على حسب نطق المتكلم. يقول عبد القاهر: (واعلمْ أنَّا لم نَجدْهُم اعتَمدوا فيه { أي في التقديم } شيئاً يَجري مَجرى الأَصْل، غيرَ العنايةِ والاهتمامِ. قال صاحبُ الكتاب، وهو يَذكُر الفاعلَ والمفعولَ: "كأنَّهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أَعْنى، وإِن كانا جميعاً يُهمَّانِهم ويَعْنيانِهم" ولم يَذْكر في ذلك مثالاً")(٤٣).

---

(٣٨) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ)، ١ / ٢٨- ٢٩، مكتبة الآداب، ط ١٧، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٣٩) نفسه.

(٤٠) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٠- ٥٥١.

(٤١) مفتاح العلوم، ١٦٨.

(٤٢) دلائل الإعجاز، ١٠٧، وينظر الكتاب، ١ / ٣٤.

٤- يرى ابن خلدون أن التوكيد يكون على حسب درجة الإنكار، فخالي الذهن لا يؤكد له الكلام، والمتردد يؤكد له ببعض المؤكدات، والمنكر يحتفل في التوكيد له حسب قوة إنكاره، ويلاحظ أن ابن خلدون كان قد قرأ كلام عبد القاهر في دلائل الإعجاز حين تكلم عن توكيد الخبر وعدمه، يقول عبد القاهر: (واعلمْ أَنّ ممَّا أَغمضَ الطريقَ إِلى معرفَةِ ما نحنُ بصدده، أَنَّ ههنا فروقاً خفيَّةً تَجهلُها العامَّةُ، وكثيرٌ من الخاصة، ليس أَنَّهم يَجْهلونَها في موضعٍ ويَعْرفونها في آخرَ، بل لا يَدْرون أَنها هي، ولا يَعْلمونها في جملةٍ ولا تفْصيل. رُويَ عن ابن الأنباريِّ أَنه قال: ركبَ الكنْديُّ المتفلسِف إلى أبي العبّاس وقال له: إني لأَجِدُ في كلامِ العَرب حَشْواً! فقال له أبو العباس: في أي وضع وجَدْتَ ذلك؟ فقال: أَجدُ العربَ يقولون: "عبدُ اللّه قائمٌ"، ثم يقولون "إنَّ عبدَ اللّه قائمٌ"، ثم يقولونَ: "إنَّ عبدَ اللّهَ لقائمٌ"، فالألفاظُ متكررةٌ والمعنى واحدٌ. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفةٌ لاختلافِ الألفاظِ، فقولُهم: "عبدُ اللّه قائمٌ"، إخبار عن قيامه. وقولهم: "إن عبدَ اللّه قائمٌ"، جوابٌ عن سؤالِ سائلٍ وقوله: "إنَّ عبدَ اللّهِ لقائمٌ"، جوابٌ عن إنكارِ مُنْكِرٍ قيامَهُ، فقد تَكرَرَّت الألفاظُ لتكرُّرِ المعاني. قال فما أَحَارَ المتفلسِفُ جواباً)(٤٤).

٥- أن ابن خلدون لم يذكر باب القصر في مسائل علم المعاني، فقد عدد سبعة الأبواب الأخرى، ولم يذكره، وأحسب أنه نسي ذكره، حيث تكلم عن الخبر، والإنشاء، وأحوال المسند، والمسند إليه، والمتعلقات، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، ثم إنه لم يذكر باب القصر.

٦- لا يكاد يخرج كلام ابن خلدون عن كلام القزويني وشراح التلخيص في وجه انحصار أبواب علم المعاني في ثمانية الأبواب المذكورة(٤٥).

٧- لم يذكر ابن خلدون المساواة، وإنما اقتصر على ذكر الإيجاز والإطناب مخالفا بذلك الخطيب القزويني وشراح التلخيص الذين نصوا على ذكرها، وكان السكاكي سمى المساواة: متعارف الأوساط. يقول السكاكي: (أما الإيجاز والأطناب فلكونهما نسبيين لا يتيسر الكلام فيهما إلا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي مثل جعل كلام الأوساط على مجرى متعارفهم في التأدية للمعاني فيما بينهم ولا بد من الاعتراف بذلك مقيسا عليه ولنسمه متعارف الأوساط، وأنه في باب البلاغة لا يحمد منهم ولا يذم)(٤٦). أما الخطيب فقد وضع عنوانا سماه: (القول في الإيجاز والإطناب والمساواة)(٤٧).

(٢ / ٢ / ب) مسائل علم البيان:

انتقل ابن خلدون إلى الحديث عن علم البيان فقال: (ثم قد يدل باللفظ ولا يراد منطوقه، ويراد لازمه إن كان مفردا، كما تقول: زيد أسد فلا تريد حقيقة الأسد المنطوقة، وإنما تريد شجاعته اللازمة، وتسندها إلى زيد، وتسمى هذه استعارة، وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه؛ كما تقول: زيد كثير الرماد، وتريد ما لزم ذلك عنه من الجود وقرى الضيف؛ لأن كثرة الرماد ناشئة عنهما، فهي دالة عليهما. وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب، وإنما هي هيئاتُ وأحوالُ الواقعات، جعلت للدلالة عليها أحوالٌ وهيئاتٌ في الألفاظ كل بحسب ما يقتضي مقامه)(٤٨). وابن خلدون قد أشار إلى أبواب علم البيان كالتشبيه والاستعارة والكناية – وإن كان خلط بين التشبيه البليغ والاستعارة – وسوف نتناول ذلك في حديثنا عن القضايا النقدية في تنظيره. كما أن ابن خلدون لم يذكر المجاز العقلي ولا المجاز المرسل في حديثه عن مسائل علم البيان، ولسنا نعرف رأيه في المجاز العقلي وهل يعد عنده من مسائل علم المعاني أو من مسائل علم البيان لكن المؤكد أنه لم يرد له ذكر في تنظيره لمسائل العلمين كليهما.

(٢ / ٢ / ج) مسائل علم البديع:

ذكر ابن خلدون مسائل علم البديع، وذكر رأي المتأخرين في تعريفه وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه، ولم يكن هذا رأي عبد القاهر، وإنما ذكرها السكاكي بقوله: (وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها، وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسين، فها هنا وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها، وهي قسمان: قسم يرجع على المعنى وقسم يرجع على اللفظ)(٤٩)، فجعل الغرض من البديع: قصد تحسين الكلام، وقد ذكر ابن خلدون ما استقر عليه السكاكي والقزويني وشراح التلخيص من أن البديع للتزيين يقول: (وألحقوا بهما صنفا آخر؛ وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه، بنوع من التنميق؛ إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه؛ لاشتراك اللفظ بينهما، وأمثال ذلك وسمي عندهم علم البديع)(٥٠).

---

(٤٣) دلائل الإعجاز، ٣١٥.

(٤٤) شروح التلخيص، ١ / ١٦١ - ١٧٢.

(٤٥) مفتاح العلوم، ٢٧٦.

(٤٦) الإيضاح، ٣ / ١٦٩.

(٤٧) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١.

(٤٨) مفتاح العلوم، ٤٢٣.

(٤٩) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١.

ويلاحظ في كلامه أنه لم يذكر من فنون البديع سوى أربعة أبواب: هي: السجع والتجنيس والترصيع والتورية، وقد ذكر ثلاثة أنواع من البديع اللفظي، ونوعا واحدا من البديع المعنوي هو التورية. لكنه أشار في إجمال إلى بقية أنواع البديع حين قال: وأمثال ذلك فأغنى اسم الإشارة عن كل أنواع البديع الأخرى، كما يلاحظ أنه يتبنى رأي السكاكي حين قال: وألحقوا به صنفا آخر وكأن هذا الإلحاق لم يكن ابن خلدون يوافق عليه، ومثل ذلك قال السكاكي حين قرر أن هذه الوجوه (كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها) كأن السكاكي لم يذكرها إلا بعد اشتهارها، وكثرة من صاروا إليها، وأكد أنه لن يحصيها وإنما سيشير إلى الأعرف منها فقط.

(٢ / ٣) الكتب البلاغية ومؤلفوها:

ذكر ابن خلدون كتبا بلاغية وذكر مؤلفيها، وقد كان ذكره لهذه الكتب في سياق الحديث عن تاريخ التأليف في البلاغة، لكنه اختصر تاريخا طويلا من التأليف البلاغي ودخل مباشرة إلى السكاكي مع إشارة سريعة لمن سبقوه، لكن هذه الإشارة وصفت الإملاءات بأنها غير وافية، كما أنه لم يذكر أسماء مؤلفي هذه الإملاءات يقول ابن خلدون: (تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى، وكتب فيها جعفر بن يحيى، والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية فيها، ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا إلى أن مخض السكاكي زبدته، وهذب مسائله، ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفا من الترتيب، وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان؛ فجعل هذا الفن من بعض أجزائه، وأخذه المتأخرون من كتابه، ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد: كما فعله السكاكي في كتاب التبيان، وابن مالك في كتاب المصباح، وجلال الدين القزويني في كتاب الإيضاح والتلخيص وهو أصغر حجما من الإيضاح، والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره)(٥١). وكلام ابن خلدون به عدة نقاط ينبغي التوقف عندها:

ذكر أن علم البلاغة كبقية العلوم نشأ متلاحقا، ولم ينشأ مرة واحدة، ولم ينفرد بوضعه عالم واحد.

أن جعفر ابن يحيى كانت له إملاءات وكتابات في فن البلاغة لكنه لم يترك كتابا كالجاحظ وقدامة(٥٢).

ذكر للسكاكي كتابين هما المفتاح والتبيان، وذكر للخطيب كتابين هما التلخيص والإيضاح.

ذكر كتاب المصباح لابن مالك لكنه ركز على شروح التلخيص فقال: (وأخذه المتأخرون من كتابه، ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد).

أنه لم يهمل السابقين من المؤلفين ولا المتأخرين لكن في إشارات سريعة لا يتوقف عندها، وهذا أمر ليس مستغربا فالرجل قد وضع تنظيرا بلاغيا سريعا، في إطار حديثه عن علوم اللسان وليس الرجل متفرغا للتأليف في البلاغة.

أشار إلى كتابين آخرين هما: العمدة لابن رشيق والكشاف للزمخشري وهو لم يسمه الكشاف وإنما قال: تفسير الزمخشري.

٤. المبحث الثالث: النقد البلاغي عند ابن خلدون:

(٣ / ٠) لم يكن تناول ابن خلدون لمسائل علم البلاغة أو التأريخ لها تناولا سلبيا، وإنما أعمل فيها عقله ونقد موافقا البلاغيين كثيرا، ومخالفا أحيانا، أو مرجحا لمذهب على مذهب في وقت ثالث: وبالتالي كان من المهم الوقوف على نقد ابن خلدون للتراث البلاغي.

(٣ / ١) ما وافق فيه ابن خلدون البلاغيين قبله:

وافق ابن خلدون البلاغيين في أن علوم البلاغة لاحقة لعلم اللغة والنحو، ووافقهم كذلك في أن علم المعاني يدرس ما لا يدرسه علم النحو من أحوال المتخاطبين، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأحوال الإسناد وتوكيد الكلام وعدمه وعلاقة الجملة بأختها، والإيجاز والإطناب، كما وافقهم في أن المقدم هو الأهم، وأن لكل مقام مقالا، وأن علم البيان يبحث في الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه، وأن البديع ملحق بعلمي المعاني والبيان، وهو يبحث في تزيين الكلام وتحسينه، وأن السكاكي هو الذي قعد للبلاغة العربية وهذب مسائلها، ورتب أبوابها، وأن القزويني لخص كتاب السكاكي ثم عاد فشرحه في الإيضاح، وأن كتاب القزويني (التلخيص) لقي عناية كبيرة من المشارقة في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره، وأن ثمرة علم البلاغة هي فهم إعجاز القرآن الكريم، وأن العرب الذين نزل القرآن في زمانهم كانوا أعلى مقاما في الذوق لأنهم كانوا فرسان الكلام وجهابذته، وأن المفسر محتاج إلى علوم البلاغة لاستخراج الدقائق القرآنية، وأن الزمخشري كان من فرسان هذا العلم.

(٣ / ٢) نقدات ابن خلدون للبلاغيين:

وقد كانت لابن خلدون نقدات في عدة قضايا منها:

---

(٥٠) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٢.

(٥١) ذكر أبو هلال وصف ثمامة لجعفر بن يحيى فقال: (وقال ثمامة: كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهّل، والجزالة والحلاوة. ولو كان في الأرض ناطق يستغنى عن الإشارة لكانه) {الصناعتين ٢٣}. وقال ثمامة أيضا: (وقال ثمامة: ما رأيت أحدا إذا تكلّم لا يتحبّس، ولا يتوقّف، ولا يتلفّف، ولا يتلجلج، ولا يتنحنح، ولا يترقّب لفظا استدعاه من بعد، ولا يتلمّس التخلّص إلى معنى قد اعتاص عليه بعد طلبه، إلا جعفر بن يحيى) {الصناعتين ٤٣}. ونقل أبو هلال عنه نقولا في حد البلاغة: (وقال جعفر بن يحيى: البلاغة أن يكون الاسم يحيط بمعناك؛ ويجلّى عن مغزاك، وتخرجه من الشركة، ولا تستعين عليه بطول الفكرة، ويكون سليما من التكلّف، بعيدا من سوء الصّنعة؛ بريّا من التعقيد، غنيّا عن التأمّل) {الصناعتين ٤٢}. وفي الإيجاز: (كما روى عن جعفر بن يحيى أنه قال مع عجبه بالإيجاز: متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيّا. ومتى كانت الكناية في موضع الإكثار كان الإيجاز تقصيرا) {الصناعتين ١٩٠}. وعلق جعفر بن يحيى على كلام لسيدنا علي فقال: (قال جعفر بن يحيى وقد ذكر هذا الكلام: (هكذا تكون البلاغة: أن يقرن بكلّ كلمة أختها، فتلوّح الأولى بالثانية قبل انقضائها، وتزيد كلّ واحدة في نور الأخرى وضيائها) {التذكرة الحمدونية ٦ / ٢٤٢}.

ذكر أن إملاءات السابقين لم تكن كافية، وهذه طبيعة العلم أن يبدأ بمسألة واحدة أو عدة مسائل ثم تزداد حتى يؤلف فيها كتاب وكتابان وكتب، ثم توضع صورته الأخيرة، يقول ابن خلدون (وكتب فيها { أي في البلاغة } جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامه وأمثالهم إملاءات غير وافية)(٥٣)، وهذا نوع من النقد لعمل السابقين.

امتدح صنيع السكاكي وأثنى عليه، ملمحا إلى رضاه عن عمله الكبير بتأليف كتابه: مفتاح العلوم فقد وصفه بعدة صفات تشير إلى إعجابه بكتابه يقول: (ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا إلى أن مخض السكاكي زبدته، وهذب مسائله، ورتب أبوابه - على نحو ما ذكرناه آنفا من الترتيب - وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان، فجعل هذا الفن من بعض أجزائه، وأخذه المتأخرون من كتابه، ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد)(٥٤). وهذه العبارات تفيد رضاه وإعجابه بصنيع السكاكي، وحق له أن يقول ذلك فلا يزال الجزء الثالث من المفتاح مرجعا أساسيا في تثبيت أسس علوم البلاغة إلى يومنا هذا، كما أن استخدام العبارات المجازية في الثناء على السكاكي أضاف استحسانا كبيرا من ابن خلدون للسكاكي.

وصف ابن خلدون كتاب التلخيص بأنه أصغر حجما من الإيضاح، وهذا نقد جيد. لكن هذا يشير إلى أمرين: الأول: أنه قدم ذكر الإيضاح على التلخيص في الذكر مع أن التلخيص سابق. والثاني: أن ابن خلدون لم يقرأ كتاب الإيضاح. ولو قرأه لعلم أن الإيضاح هو توضيح للتلخيص، يقول الخطيب في مقدمة كتابه الإيضاح: (أما بعد: فهذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها، ترجمته بـ "الإيضاح" وجعلته علي ترتيب مختصري الذي سميته تلخيص المفتاح. وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له، فأوضحت مواضعه المشكلة، وفصلت معانيه المجملة، وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر، مما تضمنه "مفتاح العلوم"، وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني- رحمه الله - في كتابيه: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما، فاستخرجت زبدة ذلك كله، وهذبتها ورتبتها، حتى استقر كل شيء منها في محله، وأضفت إلى ذلك ما أدى إليه فكرى، ولم أجده لغيري. فجاء بحمد الله جامعًا لأشتات هذا العلم، وإليه أرغب في أن يجعله نافعًا لمن نظر فيه من أولى الفهم)(٥٥). وهذا كلام صريح جدا في أن الغرض من تأليف الإيضاح أن يكون شرحا للتلخيص.

وصف المشارقة بالتفوق على المغاربة في علوم البلاغة وعلل لذلك فقال: (وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة؛ وسببه - والله أعلم - أنه كمالي في العلوم اللسانية، والصنائع الكمالية توجد في العمران، والمشرق أوفر عمرانا من المغرب-كما ذكرناه- أو نقول لعناية العجم، وهم معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشري، وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله)(٥٦). وهو تعليل سائغ عقلا ومنطقا، ونقد جيد على كل حال، فلو استعرضنا ما ألف في علوم البلاغة، وحاولنا مقارنة جهد المشارقة والمغاربة في هذا الباب ما وجدنا وجها للمقارنة. كما أن تعليله للأمر من وجهة نظر اجتماعية جيد أيضا؛ فإن البشر حين يقطنون المدن وتؤمن لهم ضروريات حياتهم ينصرفون إلى أمور أخرى فيتفاوتون فيلجأ بعضهم إلى اللهو، وبعضهم إلى العلم، وفريق ثالث إلى العبادة والزهد، والعصر العباسي خير شاهد على ذلك، عندما نقارنه بالعصر الجاهلي مثلا، أو حين نقارن بين البدو والحضر في قضية دراسة العلوم.

كما جعل المشارقة متفوقين في علمين من علوم البلاغة جعل المغاربة متفوقين في العلم الثالث؛ وهو علم البديع يقول: (اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية، وفرعوا له ألقابا، وعددوا أبوابا، ونوعوا أنواعا، وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب، وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ، وأن علم البديع سهل المآخذ. وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان؛ لدقة أنظارهما، وغموض معانيهما، فتجافوا عنهما، وممن ألف في البديع من أهل أفريقية: ابن رشيق، وكتاب العمدة له مشهور، وجرى كثير من أهل أفريقية والأندلس على منحاه)(٥٧).وكلام ابن خلدون فيه عدة ملاحظات: أهمها: اختصاص أهل المغرب بالتفوق في علم البديع، وأنهم جعلوه من جملة العلوم الأدبية وهذا يوحي بأنه لم يكن كذلك قبل ابن رشيق، وأن ابن خلدون غير راض على التفريعات الكثيرة التي فرعها العلماء للبديع وهذا يلمح من الترادفات التي ذكرها في حديثه "وفرعوا له ألقابا، وعددوا أبوابا، ونوعوا أنواعا "، وأنه وصف إحصاء فنون البديع من كلام العرب بأنه زعم { والزعم أخو الكذب}، علل سبب نبوغ المغاربة في البديع دون الفرعين الآخرين بثلاثة أسباب: أن المغاربة ولعوا بتزيين الألفاظ وأن علم البديع سهل المأخذ وأن المعاني والبيان صعب عليهم لدقة أنظارهما وغموض معانيهما، كذلك وصف كتاب ابن رشيق بأنه كتاب مشهور وهذا يرسم لنا صورة للحياة الثقافية والعلمية في زمن ابن خلدون في بلاد المغرب، وأن ابن رشيق كان رائدا لمن جاء بعده من المغاربة في باب التأليف في البلاغة.

وضع تقويما للمفسرين السابقين على الزمخشري فذكر أنهم غفلوا عن استخدام علوم البلاغة في إظهار بلاغة القرآن وإعجازه يقول ابن خلدون: (وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون، وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه، حتى ظهر جار الله الزمخشري، ووضع كتابه في التفسير، وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن، بما يبدي البعض من إعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير)(٥٨). ونستطيع أن

(٥٢) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٢.

(٥٣) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١.

(٥٤) الإيضاح، ١ / ١٦.

(٥٥) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١.

(٥٦) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٢.

(٥٧) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٣.

نحدد في كلامه ملامح هي: حاجة المفسر لفنون البلاغة حتى يقف على وجوه إعجاز القرآن ويوقف من يقرأ تفسيره، وأن أكثر المفسرين السابقين على الزمخشري غفل عن هذا الفن، وأن الذي تتبع آي القرآن بأحكام البلاغة وعلومها هو الزمخشري، وأن الكشاف قد انفرد بالفضل على جميع التفاسير وكذلك انفرد صاحبه على جميع المفسرين.

أثنى على الزمخشري، وذكر أنه صاحب بضاعة وافرة في علوم البلاغة، وليس يعيبه سوى أنه يؤيد عقائد أهل البدع {ويقصد بهم المعتزلة} عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة.

أن وضح سبب عدم الاهتمام بكتاب الزمخشري في واقع الناس وهو الخوف مما فيه من الاعتزال.

أنه ألزم طلاب علوم البلاغة ممن أحكم عقيدة أهل السنة وتمكن من التفريق بين رأيهم ورأي المعتزلة أن يدرس الكشاف ليظفر بالوقوف على بعض أوجه الإعجاز، يقول ابن خلدون: (فمن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضر في معتقده فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من الإعجاز مع السلامة من البدع والأهواء والله الهادي من يشاء إلى سواء السبيل)(٥٩). كان ابن خلدون دقيقا في كلامه فقال: يتعين عليه وهذا إلزام للمتعلمين من أهل السنة الذين أحكموا العقيدة الصحيحة أن يردوا على الزمخشري من جنس كلامه أو يقرؤوه وهم يعلمون أنه بدعة فيعرضون عنه ولا يضرهم في عقيدتهم، وأن قراءة الكشاف توقف على بعض أوجه الإعجاز القرآني، وقد استجاب للرد على الزمخشري رجل يسمى ابن المُنَيّر السكندري (٦٢٠- 683 هـ / ١٢٢٣ - ١٢٨٤ م)(٦٠)، الذي ألف كتابا للرد على الزمخشري سماه: "الانتصاف من الكشاف" ويسمى أحيانا: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، وقد تمت دراسة الانتصاف دراسة بلاغية أكثر من مرة(٦١)، وهذا يوحي بمدى علو قدر هذا الرجل في علوم البلاغة.

(٣ / ٣) الترجيح في المسائل المتعددة الآراء:

ذكر ابن خلدون في استعراضه لمسائل علم البيان {وهو يشمل علوم البلاغة كلها} آراء نراه قد اصطفى فيها رأيا وفضله على رأي آخر، وبالرجوع إلى كتب البلاغة لقراءة فلسفة هذه المسائل نجد أن القضية متعددة الآراء، وقد اختار منها ابن خلدون رأيا وترك الرأي الآخر أو الآراء الأخرى، وليست الدراسة تزعم أنه كان يقصد هذا الترجيح أو لا يقصده، وإنما تتوقف الدراسة فحسب للتنبيه على هذه القضية التي وجد الباحث أنها موجودة في تنظير ابن خلدون للبلاغة العربية في مقدمته.

(٣ / ٣ / أ) الترجيحات في أبواب علم المعاني:

ذكر ابن خلدون وهو يعرض مسائل علم المعاني تعريفا للخبر والإنشاء فقال: (الجملة الإسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه أو لا، وإنشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه)(٦٢). فهو يجعل المعيار الذي يفرق على أساسه بين الخبر والإنشاء هو النسبة الخارجية من حيث وجودها وعدمه. وهذه قضية خلافية بين البلاغيين فالقزويني من أنصار هذا الرأي يقول في الإيضاح: (الكلام إما خبر أو إنشاء؛ لأنه أما أن يكون لنسبته خارج تطابقه، أو لا تطابقه. أو لا يكون لها خارج)(٦٣). والسعد التفتازاني يؤمن بالرأي نفسه إذ يقول: (الكلام إن كان لنسبته خراج في أحد الأزمنة الثلاثة تطابقه أي تطابق تلك النسبة ذلك الخارج بأن يكونا ثبوتيتين أو سلبيتين أو لا تطابقه. بأن تكون النسبة المفهومة من الكلام ثبوتية، والتي بينهما في الخارج والواقع سلبية أو العكس فهو خبر)(٦٤). وفي مقابل هذا الرأي الذي يجعل المعيار في التفريق بين الخبر والإنشاء هو وجود الخارج أو عدم وجوده – وهو يمثل مرحلة متأخرة عن السكاكي الذي يفرق بين الخبر والإنشاء بمعيار قبول الصدق والكذب أو عدم قبولهما يقول السكاكي: (اعلم أن المعتنين بشأنهما فرقتان: فرقة تحوجهما على التعريف، وفرقة تغنيهما عن ذلك، واختيارنا قول هؤلاء. أما في الخبر فلأن كل أحد من العقلاء ممن لم يمارس الحدود والرسوم بل الصغار الذين لهما أدنى تمييز يعرفون الصادق والكاذب بدليل أنهم يصدقون أبدا في مقام التصديق ويكذبون أبدا في مقام التكذيب، فلولا أنهم عارفون للصادق والكاذب لما تأتي منهم ذلك، لكن العلم بالصادق والكاذب كما يشهد له عقلك موقوف على العلم بالخبر الصدق والخبر الكذب هذا والحدود التي تذكر كقولهم: الخبر هو الكلام المحتمل للصدق والكذب أو التصديق

---

(٥٨) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٢.

(٥٩) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٢.

(٦٠) فقد درسه محمود سيف النصر عبد الحميد في كتابه: مباحث البيان والبديع عند أحمد بن المنير السكندري في كتاب "الانتصاف من الكشاف للزمخشري"، وعبد ربه فرحات البدراوي في كتابه: موقف ابن المنير الإسكندري من الزمخشري في التفسير، وأبو الوفا شرقاوي حسن في رسالته: مسائل علم المعاني عند أحمد بن المنيِّر السكندري في كتابه (الانتصاف من الكشاف) للزمخشري، كما درسه من وجهة نظر أصولية: صالح بن غرم الله الغامدي في بحثه: المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف للزمخشري في ضوء ما ورد في كتاب الانتصاف لابن المنير.

(٦١) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١.

(٦٢) الإيضاح، ١ / ٥٥-٥٦.

(٦٣) المختصر في شرح تلخيص المفتاح (ضمن شروح التلخيص)، ١ / ٦٠- ٦١، مطبعة عيسى الحلبي، ١٩٤٤.

والتكذيب) (٦٥). وكلام السكاكي يشي بأنهما معلومان لا يحتاجان إلى تعريف، وأن الذين عرفوهما قالوا: بأن الخبر هو المحتمل للصدق والكذب، والإنشاء ليس كذلك.

وقد ناقش الدكتور طالب سيد هاشم الطبطبائي معايير التفريق بين الخبر والإنشاء في كتابه: نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب(٦٦)، وكذلك ناقشها الدكتور مسعود صحراوي في كتابه: التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي(٦٧). وقد ذكر الأخير ستة معايير للتفريق بين الخبر والإنشاء، ونسب كل معيار لمن قال به، وأورد ما ذكره العلماء من اعتراضات على هذا المعيار، والردود الممكنة عليه، بيد أن أهمها الذي تحدث عنه علماء البلاغة هما المعياران الأول والثاني – وقد ذكرتهما هنا – أما بقية المعايير فهي ألصق بعلم الأصول أكثر منها بالبلاغة.

ويلاحظ أن ابن خلدون قد رجح – قصد ذلك أم لم يقصد – معيارا على معيار ومال لرأي جماعة من علماء البلاغة تاركا الرأي الآخر. فقد أخذ بالرأي الذي يميز بين الخبر والإنشاء على أساس النسبة الخارجية وجودا وعدما في الخبر أو عدم قبول هذه النسبة الخارجية في الإنشاء.

(٣ / ٣ / ب) الترجيحات في أبواب علم البيان:

ذكر ابن خلدون أن قولنا: محمد أسد داخل في حد الاستعارة، يقول: (قد يدل باللفظ ولا يراد منطوقه، ويراد لازمه إن كان مفردا كما تقول: زيد أسد فلا تريد حقيقة الأسد المنطوقة، وإنما تريد شجاعته اللازمة، وتسندها إلى زيد وتسمى هذه استعارة)(٦٨). والقضية خلافية بين العلماء فقد تساءل العلوي في الطراز هل يعد قولنا: زيد أسد، وعمرو بحر من باب الاستعارة، أو يكون معدودا في التشبيه، ثم بدأ في الإجابة فقال: (أكثر علماء البيان على عده من باب التشبيه، وإدخاله في حيرة، ومنهم من زعم أنه معدود في الاستعارة لتجرده من آلة التشبيه، فصار الأمر في الاستعارة والتشبيه جاريا على ثلاثة أوجه: أولها: أن يكون استعارة باتفاق، وهذا كقولك: رأيت قمرا نوره على الناس، وشمسا ضياؤه على الخلق، وثانيها: تشبيه بلا خلاف، وهو ما ظهرت فيه أداة التشبيه كقولك: زيد مثل البحر، ومثل الأسد، وثالثها: وقع فيه خلاف، هل يعد من الاستعارة، أو يكون معدودا من التشبيه، وهو ما كان مضمر الأداة، وهذا كقولك: زيد أسد، وعمرو بحر، وغير ذلك)(٦٩). ثم رجع العلوي فتساءل مرة ثانية عن قول أبى الطيب المتنبي:

بدت قمرا ومالت خوط بان... وفاحت عنبرا ورنت غزالا

فهل يعد من باب التشبيه، أو من باب الاستعارة، فيه مذهبان:

المذهب الأول أنه ليس من باب الاستعارة.وهذا هو الذي مال إليه ابن الخطيب الرازي، وأبو المكارم صاحب التبيان، وهو رأى أكثر علماء البيان، وأنه من باب التشبيه المضمر الأداة، ولهم على ذلك حجتان: الحجة الأولى: قولهم إن الأسماء في دلالتها على مدلولاتها نازلة منزلة الهيئات في دلالتها على ما تدل عليه من الأحوال، فكما أنك لو أخذت رجلا من السوقة معلوما حاله بكونه سوقيا، ثم ألبسته تاج الملك، وأعرته إياه، وأقعدته على تخت المملكة بحيث إن كل من رآه توهم أنه هو الملك، لكنت قد أعرته الملك؛ لأن المقصود من هيئة الملك حصول المهابة في النفوس والجلالة في الأعيان، ولكن ذلك غير حاصل مع بقاء ما يدل على كونه سوقيا، فهكذا ما نحن فيه إذا قلت: زيد أسد، فقد نفيت عنه ما يدل على أنه ليس بأسد؛ لأن الذاتين لا يكونان ذاتا واحدة، فلا جرم لا تحصل المبالغة المقصودة من الاستعارة، فلا تكون الإعارة حاصلة. الحجة الثانية: إن المقصود من الاستعارة هو أن يحصل للمستعير من المنافع مثل ما كان حاصلا للمعير منها، كالثوب مثلا فإن المستعير يلبسه كما يلبسه المعير سواء، فإذا قلت: زيد أسد، فالمقصود من هذا الإخبار عن الشخص المعلوم بكونه أسدا لا غير، بخلاف قولك: لقيت الأسد، فإنك تفيد به أنه هو الحيوان المعلوم في الشجاعة، فقد صار الاسم منتفعا بالشجاعة مثل انتفاع الأسد بها، بخلاف قولك: زيد الأسد، فلم يقع ذلك الموقع، فلهذا لم يكن منتفعا بها، فلا جرم قضينا بكونه غير مستعار لما ذكرناه. والمذهب الثاني أنه بحقيقة الاستعارة أشبه، وقد قال به أبو هلال العسكري، والغانمى، وأبو الحسن الآمدي، وأبو محمد الخفاجي، وغيرهم من علماء البيان ولهم حجتان: الحجة الأولى: قولهم: الاستعارة ليس لها آلة، والتشبيه له الآلة، فما كانت فيه آلة التشبيه ظاهرة فهو تشبيه، وما لم تكن فيه ظاهرة فهو استعارة، فقوله: زيد الأسد لا آلة فيه فوجب كونه من الاستعارة. الحجة الثانية: هو أن المفهوم من قولنا: زيد الأسد، مثل المفهوم من قولنا: لقيت الأسد، وأتاني أسد، فإذا كان مفهومهما واحدا في المبالغة في المجاز، فإذا قضينا بكون أحدهما استعارة وجب أن يكون الآخر كذلك من غير تفرقة بينهما، هذا مغزى كلام الفريقين مع فضل تهذيب منا له لم يذكروه، وقد لخصناه، والمختار عندنا تفصيل نرمز إلى مباديه، وحاصله أنا نقول: ما كان من قبيل التشبيه المضمر الأداة كقولنا: زيد الأسد، وزيد أسد، فليس يخلو حاله من قسمين: فالقسم الأول أن يكون الكلام مسوقا على جهة الاستعارة، فلو قدرنا ظهور آلة التشبيه لنزل قدره ولخرج عن ديباجة بلاغته، فما هذا حاله يكون من باب الاستعارة، ويفسد جعله من التشبيه، ومثاله قوله تعالى: وَاخْفِضْ لَهُما جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ [الإسراء: ٢٤] وقوله تعالى: (فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) [النحل: ١١٢] فالخفض والذوق

(٦٤) مفتاح العلوم، ١٦٤.

(٦٥) منشورات جامعة الكويت، ١٩٩٤م.

(٦٦) دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

(٦٧) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١.

(٦٨) الطراز، ١ / ١٠٨.

استعارتان بليغتان، فلو ذهب بجعله تشبيها قائلا: اخفض لهما جانبك الذي هو كالجناح، وأذاقها الله الجوع والخوف اللذين هما كاللباس، كان من الركة بمكان، وهكذا لو قلت في نحو قول الشاعر:

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت... وردا وعضت على العناب بالبرد

فما هذا حاله من رقيق الاستعارة وعجيبها، فلو أظهرت التشبيه فيه، وقلت: فأمطرت دمعا كاللؤلؤ من عين كالنرجس، وسقت خدا كالورد، وعضت أنامل مخضوبة كالعناب بأسنان كالبرد، لكان غثا من الكلام فضلا عن أن يكون بليغا. القسم الثاني: أن يكون الكلام متسقا مع ظهور أداة التشبيه، وهذا كقولنا: زيد الأسد، فإنك لو قلت: كالأسد كان الكلام سديدا وكقول البحتري:

إذا سفرت أضاءت شمس دجن... ومالت في التعطف غصن بان

فإنك لو قلت: سفرت مثل ضوء الشمس ومالت في التعطف مثل غصن البان، لم يخرج الكلام عن بلاغته، وعن هذا قيل: إن قولنا: زيد أسد، الأحق أن يكون من باب الاستعارة، وأن يكون قولنا: زيد الأسد، أن يكون من باب التشبيه، لأن الكاف يحسن إظهارها في المعرف باللام دون المنكر)(٧٠).

(٣ / ٣ / ج) الترجيحات في تسمية علوم البلاغة:

ذكر ابن خلدون أن علم المعاني يسمى علم البلاغة كما أنه ذكر أن علوم البلاغة تسمى باسم العلم الثاني منها وهو علم البيان يقول: (فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالة التي للهيئات والأحوال والمقامات، وجعل على ثلاثة أصناف: الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال، ويسمى علم البلاغة... وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان، وهو اسم الصنف الثاني؛ لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه، ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى)(٧١)، والقضية خلافية بين العلماء فقد ذكر شراح التلخيص سبب التسميات المختلفة لعلوم البلاغة في تلخيص القزويني فقد قال القزويني: (كثير من الناس يسمى الجميع علم البيان. وبعضهم يسمى الأول علم المعاني، والثاني والثالث علم البيان، والثلاثة علم البديع)(٧٢). أقول: ذهب شراح التلخيص إلى القول: بأنه يمكن أن تطلق: البديع على علوم البلاغة الثلاثة؛ لبداعة مباحثها وحسنها؛ لأن البديع: هو الشيء المستحسن؛ لطرافته وغرابته، وعدم وجود مثاله من جنسه، ومباحث هذه العلوم كذلك، كما أنهم ذهبوا إلى أن كثيراً من الناس يسمي الجميع: علم البيان؛ لأن البيان هو: المنطق الفصيح المُعرِب عما في الضمير، ولا شك أن العلوم الثلاثة لها تعلُّق بالكلام الفصيح تصحيحاً وتحسيناً(٧٣). وبهذا تكون طرق تسمية البلاغيين لعلوم البلاغة ثلاثة:

أ- التقسيم الثلاثي: المعاني، البيان، البديع، كما يظهر في صنيع صاحب تلخيص المفتاح والإيضاح؛ حيث سَمَّى كل فن منها باسمه.

ب- اتجاه الكثرة إلى إطلاق اسم البيان على العلوم الثلاثة، وهذا ما أخذ به ابن خلدون.

ج - اتجاه البعض إلى إطلاق اسم البديع عليها.

ومن خلال العرض السابق يتضح لنا اختلاف العلماء في القضية، وقد جزم ابن خلدون بأن علماء البلاغة يسمون الثلاثة علم البيان، وكما أسلفت الدراسة هل هذا الترجيح مقصود أو غير مقصود من ابن خلدون لكن على كل حال فقد رجح رأيا على رأي، وقد أشارت الدراسة إلى هذه القضية تاركة البت في القصد وعدمه.

(٣ / ٤) تقويم المشارقة والمغاربة:

قدم ابن خلدون تقويما للمشارقة والمغاربة فذكر أن المشارقة أكثر اهتماما بهذه العلوم البلاغية من إخوانهم المغاربة، يقول: (وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة، وسببه - والله أعلم - أنه كمالي في العلوم اللسانية، والصنائع الكمالية توجد في العمران، والمشرق أوفر عمرانا من المغرب، كما ذكرناه، أو نقول لعناية العجم، وهم معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشري؛ وهو كله مبني على هذا الفن، وهو أصله، وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية، وفرعوا له ألقابا، وعددوا أبوابا، ونوعوا أنواعا، وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب، وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ، وأن علم البديع سهل المآخذ، وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان؛ لدقة أنظارهما، وغموض معانيهما، فتجافوا عنهما. وممن ألف في البديع من أهل أفريقية ابن رشيق، وكتاب العمدة له مشهور، وجرى كثير من أهل أفريقية والأندلس على منحاه)(٧٤). ولقد نظر المغاربة لكلام ابن خلدون على أنه انتقاص منهم يقول لحسن أفركان □وهو باحث من المغرب□: (نال المغاربة كثير من القدح في بحوثهم البلاغية، واعتبرهم الدارسون مكملين للمشارقة تابعين لهم. إنهم المحيط الذي يتبع المركز)(٧٥). لا نستطيع أن نجزم أن ابن خلدون أراد انتقاص المغاربة فهو منهم ولكنه يفسر الأمر تفسيرا اجتماعيا متميزا؛ فالعلاقة بين الشرق والغرب ليست علاقة تمايز أو استعلاء، وإنما هي من (هذا النمط الذي لا تنطوي العلاقة فيه بين الطرفين على التعارض المبني على توتر أو صراع أو رغبة الإزاحة, وإنما على التفاعل والتعاون والاعتماد

(٦٩) الطراز، ١ / ١٠٨ – ١٠٩.

(٧٠) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١- ٥٥٢.

(٧١) الإيضاح لتلخيص المفتاح، الخطيب القزويني، ١ / ٣٠.

(٧٣) ينظر تفصيل الأسباب التي تكمن وراء تسميات علوم البلاغة في شروح التلخيص، ١ / ١٥١.

(٧٣) مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٢.

(٧٤) البحث البلاغي بالمغرب خلال القرن الثامن الهجري- المنزع البديع أنموذجا، مقالة منشورة في صحيفة: قاب قوسين الإلكترونية، بتاريخ: ٢٩ / ٤ / ٢٠١٣م.

المتبادل)(٧٦). والحق أن كثيرا من الكتاب جعلها عصبية ووقف ينصر قطره على غيره من الأقطار (ولم يحسن العديد من المثقفين العرب استخدام مفهوم المشرق العربي ومغربه في العديد من الأطروحات النقدية، فقد تحول هذا التعبير أحيانا من مجرد تحديد جغرافي إلى بحث عن الاختلافات الفكرية والثقافية؛ لتأصيل الفرقة والاختلاف. كما استخدم أيضا من أجل إعلاء شأن بعض الأقاليم، ومنحها الريادة والأسبقية فوق أقاليم أخرى، وكلها مفاهيم مغلوطة، هي في أغلبها من بقايا الإرث الثقافي الذي أفرخته البذور الاستعمارية والاختلافات العارضة)(٧٧).

على كل حال ذكر ابن خلدون تميز المشارقة في علمين هما: علم المعاني والبيان وتميز المغاربة في علم البديع، لسهولة مآخذه، وقربه من الأفهام، وقد يكون في هذا تحامل على أهل المغرب، وقد يفسره البعض بالتعصب ضدهم لكن حقيقة الأمر أن النهضة العلمية في بلاد المغرب قد نشأت متأخرة عنها في المشرق، ليس هذا موطن التفصيل في أسبابها، وقد ظلت كذلك حتى عصر ابن خلدون، قد يكون هناك شذرات علمية أنارت هذا الظلام، لكنها لا تقارن بحجم الثقافة والعلم في بلاد المشرق، وهذا يدفعنا إلى القول: بأن ابن خلدون لم يكن متعصبا، فقد كان يعيش في عصر تثقف بثقافته، وعايش الحركة العلمية فيه، كما أنه رجل من أهل المغرب فما الذي يدفعه إلى التعصب ضد المكان الذي نشأ فيه؟ لكن هذا لن يمنعنا من القول بأن المغاربة قد وصلوا إلى حد الاستقلال عن المشرق العربي (فالتلميذ قد أكمل تعليمه، ومضى في طريقه المستقل، وأنجز ما يعجز عنه بعض الغارقين في أوهام الماضي المركزية)(٧٨).

٥. المبحث الرابع: معجم المصطلحات عند ابن خلدون

(٤) معجم المصطلحات البلاغية عند ابن خلدون:

يحسن بنا في ختام هذه الدراسة أن نقدم مقاربة معجمية تهدف إلى الوقوف أمام المصطلحات البلاغية التي استخدمها ابن خلدون، محاولة إبراز ما يمكن أن يكون إسهاما منه في بناء صرح علوم البلاغة، والسعي بها نحو النضوج، خصوصا وهو قريب العهد من السكاكي الذي ينسب إليه وضع أسس هذا العلم، وسوف يكون سيرنا في ذكر المصطلحات على غرار ما فعله الدكتور أحمد مطلوب في معجم المصطلحات البلاغية، من حيث الترتيب الأبجدي لهذه المصطلحات، مع محاولة تعريف هذه المصطلحات.

١- **الاستعارة:**

وأول من عرفها الجاحظ حيث يقول: الاستعارة: تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه (البيان والتبيين ١ / ١٥٣)، وعرفها القاضي الجرجاني بقوله: (الاستعارةُ ما اكتُفِي فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها. وملاكُها تقريب الشَّبَه، ومناسبةُ المستعار له للمستعار منه، وامتزاجُ اللفظ بالمعنى؛ حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر) (الوساطة، ٤١). ولكن ابن خلدون استخدمها في التشبيه البليغ، وقد ذكر العلوي تعريفا للاستعارة يفصلها عن التشبيه البليغ الذي خلط ابن خلدون بينه وبين الاستعارة فقال العلوي: (تصييرك الشيء الشيء وليس به، وجعلك الشيء للشيء وليس له بحيث لا يلحظ فيه معنى التشبيه صورة ولا حكما) (الطراز، ١/١٠٦).

٢- **الإسناد الخبري:**

(وهو ضم كلمة أو ما يجري مجراها إلى أخرى بحيث يفيد أن مفهوم إحداهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفي عنه. وصدقه مطابقته للواقع، وكذبه عدمها. وقيل صدقه مطابقته الاعتقاد وكذبه عدمها) (التعريفات، الشريف الجرجاني، ١٧. وينظر أيضا: معجم المصطلحات البلاغية، د/ أحمد مطلوب، ١ / ٢٠١ – ٢٠٢). وقد استخدم ابن خلدون هذا المصطلح بما تعارف عليه البلاغيون فقال: (الجملة الإسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه أو لا. وإنشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه) (مقدمة ابن خلدون ١ / ٥٥١). فجعل الجملة الإسنادية منقسمة إلى: جملة إسنادية خبرية، وجملة إسنادية إنشائية.

٣- **الإطناب:**

وهو التطويل، وفرق ابن الأثير بينه وبين التطويل والتكرير فقال: (هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، فهذا حده الذي يميزه عن التطويل؛ إذ التطويل هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة، وأما التكرير فإنه دلالة على المعنى مرددا) (المثل السائر، ٢ / ٢٨٠). وبهذا المعنى للإطناب استخدمه ابن خلدون يقول: (ثم يقتضي المحل الإطناب والإيجاز فيورد الكلام عليهما) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١).

٤- **الإعجاز:**

وهو من أعجز إذا تحدى ولم يطق الخصم التحدي، والإعجاز في القرآن تحدث فيه العلماء كثيرا، وكان المتكلمون أول من تحدث في الإعجاز، ورأي المعتزلة – إلا النظام وهشاما القوطي – أن القرآن معجز بنظمه، ويرى الرماني أنه معجز ببلاغته، وهو أعلى طبقات الكلام، والبلاغة عنده: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ (النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ٦٩). وقد ذكر ابن خلدون الإعجاز بهذا المعنى، وهو الإعجاز البلاغي يقول: (واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن؛ لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة هي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها، وجودة رصفها، وتركيبها وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٢).

٥- **الإنشاء:**

---

(٧٥) حوار المشارقة والمغاربة وتحول صيغة المركز والأطراف، د/ جابر عصفور نقلا عن كتاب العربي،٦٥، يوليو ٢٠٠٦م.

(٧٦) ندوة مجلة العربي الكويتية "حوار المشارقة والمغاربة – الوحدة في التنوع" في الفترة من ٤ – ٦ من ديسمبر، ٢٠٠٤م.

(٧٧) حوار المشارقة والمغاربة وتحول صيغة المركز والأطراف، د/ جابر عصفور نقلا عن كتاب العربي،٦٥، يوليو ٢٠٠٦م.

وهو كل كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته؛ لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به واقع خارجي يطابقه أو لا يطابقه. واعتدوا على هذا التعريف في التفرقة بين الخبر والإنشاء فقال الخطيب: (ووجه الحصر أن الكلام إما خبر أو إنشاء؛ لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه، أو لا تطابقه، أو لا يكون لها خارج. الأول: الخبر، والثاني: الإنشاء) (شروح التلخيص، ٢ / ٢٣٤). وقد استخدم ابن خلدون الإنشاء بهذا المعنى الذي ثبت عليه المتأخرون، وخالفوا به السكاكي، يقول ابن خلدون: (الجملة الإسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه أو لا. وإنشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه) (مقدمة ابن خلدون ١ / ٥٥١).

٦- الإيجاز:

ويعني الاختصار، ويعرفونه بقولهم: (الإيجاز - هو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل منها، وافية بالغرض المقصود، مع الإبانة والإفصاح) (جواهر البلاغة، ١٩٧). وقد استخدم ابن خلدون هذا المصطلح كما استخدمه البلاغيون، ولم يخالفهم في الاستعمال يقول: (ثم يقتضي المحل الإطناب والإيجاز فيورد الكلام عليهما) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١).

٧- الإيهام = التورية:

ومعنى الإيهام يعني التخييل، وتوهم الشيء: ظنه، وقد عرفه السكاكي بقوله: (وهو أن يكون للفظ استعمالان: قريب، وبعيد؛ فيذكر لإيهام القريب في الحال على أن يظهر أن المراد به البعيد) (مفتاح العلوم، ٤٢٧). وسمى السيوطي هذا الفن إيهاما، وأشار إلى أنه يدعى تورية أيضا (شرح عقود الجمان، ١١٢، وينظر أيضا: معجم المصطلحات البلاغية، د/ أحمد مطلوب، ١ / ٣٧٣). وقد استعمل ابن خلدون هذا المصطلح كما استعمله البلاغيون، بل استعمل المصطلحين: الإيهام والتورية يقول: (وألحقوا بهما صنفا آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق: إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه؛ لاشتراك اللفظ بينهما، وأمثال ذلك. وسمى عندهم علم البديع) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١). ويلاحظ أن ابن خلدون قد اعتمد مصطلح التورية بدلا من الإيهام، وأدخل مصطلح الإيهام في تعريف التورية.

٨- البديع:

بدع الشيء: أنشأه وبدأه، وأبدعت الشيء: اخترعته لا على مثال، والبديع: المبدع، والبديع من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها، وهو البديع الأول قبل كل شيء، والبديع الجديد (لسان العرب، مادة بدع). وقد ذكر الجاحظ أن من أطلق اسم البديع هم الرواة (البيان والتبيين، ٤ / ٥٥). وكان البديع يطلق على علوم البلاغة كلها، يقول عبد القاهر: (وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع...) (أسرار البلاغة، ٢٠). وكان بدر الدين بن مالك هو من أطلق مصطلح البديع على هذه الوجوه والمحسنات، وقال عن البديع إنه (معرفة توابع الفصاحة) (المصباح في المعاني والبيان والبديع، ٧٥، وينظر أيضا: معجم المصطلحات البلاغية، ١ / ٣٨٢). وقد استخدم ابن خلدون مصطلح البديع بالمعنى الذي ثبت عند المتأخرين أمثال بدر الدين بن مالك والسكاكي والخطيب وشراح التلخيص وهو جعله علما على الوجوه والمحسنات اللفظية والمعنوية، يقول: (وألحقوا بهما صنفا آخر، وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق؛ إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه؛ لاشتراك اللفظ بينهما، وأمثال ذلك. وسمى عندهم علم البديع) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١).

٩- البلاغة = علم المعاني:

والبلاغة هي الوصول والانتهاء، وقال العتابي في تعريفها: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ (البيان والتبيين، ١ / ١١٣). وقد استعمل ابن خلدون البلاغة بمعنى علم المعاني يقول: (فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالة التي للهيئات والأحوال والمقامات، وجعل على ثلاثة أصناف: الصنف الأول: يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال. ويسمى علم البلاغة ...) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١). وهو يسمي علوم البلاغة كلها: علم البيان، ويسمي علم المعاني: علم البلاغة، وكنا قد ذكرنا أن هذه التسميات مختلف فيها، حسب وجهة نظر المتناول للدراسة.

١٠- البيان = الإبانة = علوم البلاغة الثلاثة:

والبيان هو (الكشف والإيضاح والفهم والإفهام) (البيان والتبيين، ١ / ٧٦). وعبد القاهر يعد الفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان شيئا واحدا (دلائل الإعجاز، ٣٥). وصار يستخدم البيان بمعنى الوضوح حتى دخل المصطلح علم البلاغة فصار يطلق على علوم البلاغة كلها حينا، وعلى أحد علومها حينا آخر وقد استخدمه ابن خلدون بمعنى علوم البلاغة الثلاثة، يقول: (فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالة التي للهيئات والأحوال والمقامات، وجعل على ثلاثة أصناف...) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١).

١١- التأكيد = التوكيد:

وقد عرفه العلوي فقال: (التأكيد تمكين الشيء في النفس، وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك، وإماطة الشبهات عما أنت بصدده) (الطراز، ٢ / ٩٤). وقد استعمله ابن خلدون بالمعنى الذي استعمله به البلاغيون فقال: (تأكيد الإسناد على الجملة كقولهم: زيد قائم، وإن زيد قائم، وإن زيدا لقائم متغايرة كلها في الدلالة، وإن استوت من طريق الإعراب؛ فإن الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الخالي الذهن، والثاني المؤكد بإن يفيد المتردد، والثالث يفيد المنكر فهي مختلفة) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١).

١٢- التجنيس = الجناس = المجانسة:

وكلها مشتقة من الجنس، وتجانس الشيئان إذا دخلا في جنس واحد، وهو أن تتفق الكلمتان في اللفظ وتختلفا في المعنى. وقال أشار سيبويه إلى التجنيس وسماه: (اتفاق اللفظين والمعنى مختلف) (الكتاب، ١ / ٢٤). وقد استعمل ابن خلدون التجنيس

بالمعنى الذي اتفق عليه البلاغيون قبله، يقول: (وألحقوا بهما صنفا آخر، وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق، إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١).

١٣- **التقديم: (المتقدم)**

قدّم الشيء: وضعه أمام غيره، والتأخير نقيض ذلك. يقول عبد القاهر: (قال صاحب الكتاب: كأنهم يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم، وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعا يهمّانهم ويعنيانهم) (دلائل الإعجاز، ١٠٧). وقد ذكر ابن خلدون الجذر للتقديم فقال: (ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة؛ ألا ترى أن قولهم: زيد جاءني مغاير لقولهم: جاءني زيد من قِبَل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم. فمن قال: جاءني زيد أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند إليه، ومن قال: زيد جاءني أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٠- ٥٥١).

١٤- **التنكير:**

والنكرة: ما دل على شيء لا بعينه، وللتنكير دلالات غير دلالات التعريف، قال ابن الزملكاني: (وقد يظن ظان أن المعرفة أجلى فهي من النكرة أولى، ويخفى عليه أن الإبهام في مواطن خليق، وأن سلوك الإيضاح ليس بطريق خصوصا في موارد الوعد والوعيد والمدح والذم اللذين من شأنهما التشييد) (البرهان الكاشف، ١٣٦، وينظر معجم المصطلحات البلاغية، ٢ / ٢٨٦). ولم يخرج ابن خلدون عن هذا الاستعمال، إذ يقول: (وكذلك تقول: جاءني الرجل، ثم تقول مكانه بعينه: جاءني رجل إذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه، وأنه رجل لا يعادله أحد من الرجال) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١).

١٥- **الخبر:(خبرية):**

لم يعرفه السكاكي قائلا: إن الخبر والطلب مستغنيان عن التعريف الحدي (مفتاح العلوم، ١٦٥)، أما الخطيب فقد ذكر آراء السابقين كالنظام والجاحظ، ولكنه أخذ برأي الجمهور، فقال: (اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب، فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما) (الإيضاح، ١ / ٥٩). وقد استعمل ابن خلدون الخبر بالمعنى نفسه، فيقول: (الجملة الإسنادية تكون خبرية، وهي التي لها خارج تطابقه أو لا. وإنشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١).

١٦- **السجع:**

وهو من الاستواء والاستقامة والموالاة والاشتباه، وهو التكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن، وقال ابن جني: سمي سجعا لاشتباه أواخره، وتناسب فواصله (معجم المصطلحات البلاغية، ٢ / ١٤٤). وهو من أوصاف البلاغة، وهو في النثر كالقافية في الشعر، وفرق البلاغيون بين السجع والفاصلة القرآنية تنزيها للقرآن عن السجع، واستعمله ابن خلدون في كلامه بهذا المعنى فقال: (وألحقوا بهما صنفا آخر، وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق؛ إما بسجع يفصله، أو...) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١).

١٧- **الطلب:**

وهو محاولة وجدان الشيء وأخذه، وهو المسمى بالإنشاء أيضا، وهو قسمان: إنشاء طلبي: وهو ما يستدعي مطلوبا غير حاصل في وقت الطلب، وهو خمسة أنواع: الأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء. والإنشاء غير الطلبي، وهو ما لا يستدعي مطلوبا، وله أساليب منها: صيغ المدح والذم، ونعم وبئس وغيرها (معجم المصطلحات البلاغية، ٣ / ٧٠). وقد استعمل ابن خلدون الطلب بهذا المعنى فقال: (الجملة الإسنادية تكون خبرية؛ وهي التي لها خارج تطابقه أو لا وإنشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١).

١٨- **الفائدة = الإفادة:**

وفائدة الخبر هي الغرض الأساسي الذي يلقى الخبر من أجله، وهي قصد المخبر بخبره، فإذا قصد المخبر إفادة المخاطب نفس الخبر فهذه هي القائدة، وقد استعمل ابن خلدون الإفادة أو الفائدة بهذا المعنى المذكور، إذ يقول: (يبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين، أو الفاعلين، وما يقتضيه حال الفعل، وهو محتاج إلى الدلالة عليه؛ لأنه من تمام الإفادة، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه، وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٠).

١٩- **الكناية:**

عرفها عبد القاهر فقال: (أن يريد المتكلم معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه) (دلائل الإعجاز، ٦٦). واستعمال ابن خلدون لها لا يخرج عن هذا المعنى، إذ يقول: (وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه كما تقول: زيد كثير الرماد، وتريد ما لزم ذلك عنه من الجود وقرى الضيف؛ لأن كثرة الرماد ناشئة عنهما، فهي دالة عليهما، وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب... والصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١).

٢٠- **المسند:**

وهو المحكوم به، أو المخبر به، وهو الفعل وشبهه في الجملة الفعلية، والخبر وما في حكم الخبر في الجملة الاسمية، (فمن قال: جاءني زيد أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند إليه، ومن قال: زيد جاءني أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٠).

٢١- **المسند إليه:**

وهو المحكوم عليه أو المخبر عنه؛ كالمبتدأ في الجملة الاسمية وما في حكمه كاسم كان وإن ونحوهما، أو الفاعل في الجملة الفعلية، ونائب الفاعل، وقد استعمل ابن خلدون المسند إليه بالمعنى المذكور، ولم يخرج عنه فيقول: (الأمور التي يقصد المتكلم بها

إفادة السامع من كلامه هي إما تصور مفردات تسند ويسند إليها ويفضي بعضها إلى بعض والدالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٠).

٢٢- المقال والمقام:

ولم يخصهما صاحب معجم المصطلحات البلاغية بالحديث المنفرد عنهما، وإنما ذكرهما في إطار حديثه عن مقتضى الحال، فذكر أن مطابقة الكلام لمقتضى الحال هي موافقة المقام للمقال، وذكر قول الحطيئة:

تحنن عليّ هداك المليك فإن لكل مقام مقالا

(معجم المصطلحات البلاغية، ٣ / ٢٦٨)

وقد ذكر ابن خلدون المقام والمقال – كما ورد ذكرهما في كلام العرب والبلاغيين فقال عن العرب: (فإن كلامهم واسع، ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٠).

٢٣- مقتضى الحال: (مقتضيات الحال)

(وهو أن يكون الكلام مطابقا للحالة التي يتحدث عنها، ومناسبا للموقف الذي يتحدث فيه) (معجم المصطلحات البلاغية، ٣ / ٢٩٦). وقد عرفوا البلاغة بأنها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، وربط السكاكي بين حسن الكلام أو قبحه وهذه المطابقة (مفتاح العلوم، ١٨٥). وبهذا المعنى استعمل ابن خلدون مصطلح مقتضى الحال فقال: (هيئات وأحوال الواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ، كل بحسب ما يقتضي مقامه فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالة التي للهيئات والأحوال والمقامات، وجعل على ثلاثة أصناف: الصنف الأول: يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥١). وقال في مكان آخر: (اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة؛ إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب؛ فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير به عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة) (مقدمة ابن خلدون، ١ / ٥٥٤).

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الطويلة مع ابن خلدون في تنظيره البلاغي، وبعد أن كادت تحط الدراسة رحالها، توصلت الدراسة إلى عدة نتائج منها:

أن ابن خلدون كان كاتبا موسوعيا، كتب في فنون كثيرة؛ فلم تكن مقدمته مقصورة على علم الاجتماع فحسب، وإنما شملت علوما كثيرة منها علوم اللسان التي أشار إليها.

أن علوم اللغة العربية وحدة متكاملة، لا تكاد تنفصل عن بعضها البعض إلا لقصد الدرس فحسب، وأن البلاغة لا تنفصل عن النحو ولا اللغة ولا الصرف ولا غيرها من علوم العربية الأخرى.

قدم ابن خلدون ضرورة العلم بالنحو على علم اللغة؛ لأن أكثر الأوضاع (يقصد وضع الكلمة في اللغة) باقية في موضوعاتها لم تتغير لكن الإعراب يتغير.

مكان علم البيان (ويقصد به علوم البلاغة كلها) الثالث بين علوم اللسان في فكر ابن خلدون.

فجعل ثمرة دراسة علم البلاغة هي فهم إعجاز القرآن، وهو بذلك يتوافق مع البلاغيين السابقين عليه.

بيّن دور الذوق في إدراك الإعجاز، وأن مراتب إدراك الإعجاز متفاوتة بحسب قوة الذوق، ومخالطة أهل اللسان.

سمى علوم البلاغة الثلاثة باسم النوع الثاني منها؛ وهو علم البيان، وعلل لذلك بأن علم البيان هو أول شيء تكلم فيه واضعو البلاغة.

فكرة المقال والمقام واضحة في ذهن ابن خلدون فلكل مقام مقال.

ثقافة ابن خلدون واسعة حيث إنه أحيانا يعبر بتعبير السابقين، فقد استخدم تعبير سيبويه في حديثه عن تقديم الأهم، واستخدم تعبير عبد القاهر في حكايته عن الكندي الفيلسوف وثعلب، وكثير غيرها.

أن أبواب علم المعاني عنده سبعة وليست ثمانية؛ حيث لم يعد القصر بابا من أبواب علم المعاني، أو اعتبره ولم ينظر له في مقدمته.

جعل التشبيه البليغ من أنواع الاستعارة.

ناصر رأي المتأخرين في جعل البديع عبارة عن تزيين الكلام وتحسينه، ولم يكن هذا رأي عبد القاهر.

امتدح صنيع السكاكي وأثنى عليه، ملمحا إلى رضاه عن عمله الكبير بتأليف كتابه: مفتاح العلوم، على الرغم من قول كثيرين: إن السكاكي عقد البلاغة فابن خلدون لا يرى ذلك.

وصف المشارقة بالتفوق على المغاربة في علوم البلاغة جملة وبالأخص في علمي المعاني والبيان، وتفوق المغاربة في علم البديع.

أن المغاربة ولعوا بتزيين الألفاظ وأن علم البديع سهل المأخذ، وأن المعاني والبيان صعبا عليهم لدقة أنظارهما وغموض معانيهما.

ذكر حاجة المفسر لفنون البلاغة حتى يقف على وجوه إعجاز القرآن، ويوقف من يقرأ تفسيره، وأن أكثر المفسرين السابقين على الزمخشري غفل عن هذا الفن، وأن الذي تتبع آي القرآن بأحكام البلاغة وعلومها هو الزمخشري، وأن الكشاف قد انفرد بالفضل على جميع التفاسير.

أثنى على الزمخشري، وذكر أنه صاحب بضاعة وافرة في علوم البلاغة، وليس يعيبه سوى أنه يؤيد عقائد أهل البدع {ويقصد بهم المعتزلة} عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة.

رصدت الدراسة ثلاثة وعشرين مصطلحا بلاغيا استخدمها ابن خلدون في تنظيره لعلم البيان (وهو يعني علوم البلاغة).

والله الموفق والمعين، والحمد لله رب العالمين.

المراجع

١. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

٢. أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

٣. الأصول البلاغية في كتاب سيبويه، د/ أحمد سعد، مكتبة الآداب، ١٩٩٩م.

٤. الأصول: دراسة إبيستمولوجية لأصول الفكر العربي، د/ تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م.

٥. إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب (المتوفى: ٤٠٣هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف - مصر

٦. إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

٧. الإيضاح في علوم البلاغة، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة.

٨. البحث البلاغي بالمغرب خلال القرن الثامن الهجري- المنزع البديع أنموذجا، مقالة منشورة في صحيفة: قاب قوسين الإلكترونية، بتاريخ: ٢٩ / ٤ / ٢٠١٣م.

٩. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني، تحقيق الدكتور / أحمد مطلوب، والدكتورة / خديجة الحديثي، بغداد، ١٩٧٤م.

١٠. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ)، مكتبة الآداب، ط ١٧، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

١١. البيان في إعجاز القرآن، صلاح الخالدي، دار عمار، الأردن، ط١٤١٣،٣هـ- ١٩٩٢م.

١٢. البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ.

١٣. التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، د/ مسعود صحراوي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

١٤. التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (المتوفى: ٥٦٢هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ.

١٥. التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

١٦. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرماني، الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله، ود/ محمد زغلول سلام، دار المعارف المصرية، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦م.

١٧. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.

١٨. حوار المشارقة والمغاربة وتحول صيغة المركز والأطراف، د/ جابر عصفور نقلا عن كتاب العربي،٦٥، يوليو ٢٠٠٦م.

١٩. دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٢٠. سلطة الجذور: الأثر السلبي للنحو العربي على الدرس البلاغي، مجلة فصول العدد ٦٠، صيف وخريف ٢٠٠٢م.

٢١. شرح عقود الجمان، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ)، دار الفكر، د. ت.

٢٢. شروح التلخيص، مطبعة عيسى الحلبي، ١٩٤٤م.

٢٣. الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المكتبة العصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

٢٤. القاعدة والذوق في بلاغة السكاكي، د/ يوسف زرقة، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد السابع، العدد الأول، يناير ١٩٩٩م.

٢٥. قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، د/ عبد العزيز عبد المعطي عرفة، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥ م.

٢٦. الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٢٧. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

٢٨. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (المتوفى: ٦٣٧هـ)، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة.

٢٩. مداخل إعجاز القرآن، محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

٣٠. المرايا المقعرة، د/ عبد العزيز حمودة، ط عالم المعرفة، ٢٠٠١م

٣١. مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، بحث منشور ضمن أعمال ندوة: قراءة جديدة لتراثنا النقدي، نادي جدة الأدبي ١٩٨٨م.

٣٢. المصباح في المعاني والبيان والبديع، بدر الدين ابن مالك الشهير بابن الناظم، حققه وشرحه ووضع فهارسه: د. حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب، د.ت.

٣٣. المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة، د/ مقال للدكتور / تمام حسان، مجلة فصول. المجلد السابع، العدد ٣ و٤، ١٩٨٧م.

٣٤. معجم المصطلحات البلاغية، د/ أحمد مطلوب، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٧م.

٣٥. مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: ٦٢٦هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٣٦. مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، دار القلم، بيروت، الطبعة: الخامسة، ١٩٨٤م.

٣٧. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦م.

٣٨. المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، المكتبة الأزهرية للتراث.

٣٩. نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، د/ طالب سيد هاشم الطبطبائي، منشورات جامعة الكويت، ١٩٩٤م.

٤٠. النقد العربي نحو نظرية ثانية، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٠م،

٤١. النقد والبلاغة، د/ شكري محمد عياد، مطبوع ضمن «موسوعة الحضارة العربية الإسلامية»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ١٩٨٧م.

٤٢. الوساطة بين المتنبي وخصومه، أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ)، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.